المبحث الخامس
النظام الاقتصادي والخدمات الاجتماعية

أولاً: مصادر دخل دولة نور الدين وسياسته الاقتصادية:

ثمة سؤال يفرض نفسه قبل الحديث عن هذا الموضوع، فنور الدين محمود أنفق مقادير كبيرة من المال في تغطية الخدمات الاجتماعية المتشعبة الواسعة وأسقط في الوقت نفسه مبالغ نقدية أكبر منها حجما كانت تنصب في خزائن الدولة ضرائب ومؤنا ورسوماً ومكوساً، فمن أين كانت دولة نور الدين تحظى بمواردها الدائم الذي يحميها من العجز، وكيف مضت حتى النهاية تصدر المناشير بإسقاط المكوس والضرائب، وتنفق عن سعة في ميادين الخدمات الاجتماعية دون أن يصيبها الخلل فتوقف - على الأقل - عن العطاء إن لم نقل ترجع ثانية فتفرض على المواطنين ما يمكنها من سد الفتق واستعادة التوازن والقدرة على العمل؟ إن دولة نور الدين لو لم تحظ بالقدر الكافي من المال وبشكل دائم لما واصلت سياستها تلك حتى آخر لحظة، ولما وصفها العماد بأنها كانت: نافذة الأوامر منتظمة الأمور [١]. وقد كانت خزائن الدولة تحظى دوماً بالقدر الكافي من المال، وكانت الدولة لها القدرة على الإنفاق في المجال العسكري والاجتماعي والتعليمي وغيرها بسبب سياسة نور الدين الحكيمة وإليك شيئا من التفصيل:

١ – نظام القطاع الحربي:

اعتمد الزنكيون نظام الإقطاع الحربي للصرف على جيوشهم خلال جهادهم ضد الصليبيين، فقد نشأ نظام الإقطاع الحربي في الشرق الإسلامي في الدولة السلجوقية التي كانت تسير على أساس صرف مرتبات نقدية للجيش النظامي حتى منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي حيث أدى اتساع رقعة الدولة وصعوبة السيطرة عليها وإرهاق الإدارة المالية بباهظ المرتبات التي تصرف للجيش، إلى تفكير الوزير نظام الملك في الاستعاضة عن المرتبات النقدية، بالإقطاعات من الأراضي لمختلف عناصر الجيش [٢]، وقد انتقل نظام الإقطاع الحربي كاملاً إلى الدولة الزنكية التي نبتت وترعرعت في أحضان السلاجقة ثم ورثتهم بعد ذلك [٣]. وقد ارتبط الإقطاع الحربي في عصر الزنكيين بالخدمة الحربية، إذ كان الأمير المقطع يلزم بتقديم العساكر وقت الحرب مجهزة بكامل عتادها وعدتها، وكان إقطاعاً وراثياً، أي أن إقطاع الأمير أو الجندي يمنح بعد وفاته لأولاده [٤]، وفي حالة صغر سن الابن كان السلطان يعين من يدير الإقطاع حتى يبلغ سن الرشد، ومنح الإقطاع بواسطة السلطان لم يكن معناه تمليك الأراضي الزراعية للمقطع، وليس معناه أيضاً تمتع المقطع بمتحصلات الإقطاع لفترة طويلة، بل كان يعطي المقطع مجرد الحق في أن يجمع لنفسه وأجناده

(١) نور الدين محمود ص ١١٩، ١٢٠ البرق ص ١٤٧.
(٢) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين زمن عماد الدين وابنه ص ٢٦ نقلاً عن جيش مصر، حسان سعداوي ص ١، ٢.
(٣) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين وعماد الدين وابنه ص ٢٦.
(٤) الكامل في التاريخ نقلا عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٧.

مجموعة من الضرائب في مقابل الواجبات المدنية العسكرية التي كان المقطع ملزماً بها [١]، والملاحظ أن توزيع الإقطاعات الحربية على الأمراء والأجناد في العهد الزنكي شمل كل البلاد التي تمكن عماد الدين وابنه نور الدين من ضمها إلى مشروع الجبهة الإسلامية آنذاك والأدلة على ذلك كثيرة منها أنه عندما لجأ نجم الدين وأخوه أسد الدين شيركوه إلى الموصل، رحب بهما زنكي وأقطعهما الإقطاعات في شهرزور بشمال العراق ثم خص أسد الدين بالمؤزر [٢]. وأقطع الأمير جاولى الرحبة وأعمالها [٣] وسار نور الدين محمود على نهج والده في توزيع الإقطاعات الحربية، فعندما استولى على دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م، أقطع صاحبها مجير الدين ضياعاً بحمص عوضاً عن دمشق، كما أقطع شهاب الدين على بن مالك العقيلي سروج والملاحظة والباب وبزاغة [٤] وأقطع في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م مجد الدين أبا بكر بن الداية حلب وحارم وقلعة جعبر، ثم أقرها بعد وفاته سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م في يد أخيه علي ابن الداية، وأقطع نور الدين مسعود بن الزعفران حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها [٥]، كما أقطع أمراء العراق الإقطاعات لحفظ طريق الحاج بين الشام والحجاز، ولمثل هذا الهدف أقطع أمير مكة إقطاعاً وافرا [٦]، وشمل الإقطاع الحربي في عهد نور الدين الأراضي المصرية، من ذلك ما ذكرته بعض المصادر المعاصرة من أن نور الدين عندما سمع بأن بعض أمرائه في مصر تردد في محاربة الفاطميين والصليبيين عند البابين في صعيد مصر، هددهم بأخذ إقطاعاتهم وإعادة الموارد التي أخذوها منها [٧] واتبع عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود أساليب عدة لتوزيع الإقطاعات الحربية على أمرائهما وأجنادهما. منها ما كان الغرض منه استمالة الحكام المسلمين بهدف توحيد الجبهة الإسلامية، ومن ذلك أن عماد الدين عندما عزم في سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م الاستيلاء على قطعة جعبر وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة، لما رأى حصانتها كتب إلى عز الدين علي بن مالك في معنى تسليمها، وفوض عماد الدين حسان المنبجي أن يضمن لعلي بن مالك الإقطاع الوافر والعطاء الكثير مقابل التسليم [٨]، ومن ذلك أيضاً ما ذكر أن نور الدين عندما حاصر دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م وأدرك صاحبها مجير الدين آبق عدم جدوى المقاومة احتمى بقلعة دمشق ساعات ثم استسلم فأطلق نور الدين سراحه وأقطعه عوضاً عن دمشق حمص وأعمالها [٩]. كما منح الإقطاع في العهد الزنكي للأمراء والأجناد كمكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال جليلة سواء في مرحلة تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة أو إبان مراحل جهادهم ضد الصليبيين، من ذلك ما ذكره ابن الأثير أن عماد الدين عندما ملك بعض ديار

(١) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٧.
(٢) مفرج الكروب (٣/١ - ٦) النجوم الزاهرة (٢٧٧/٥).
(٣) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٢٧.
(٤) مفرج الكروب (٣/١ - ٦) النجوم الزاهرة (٢٧٧/٥).
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص ٢٨.
(٦) مقومات حركة الجهاد ص ٢٨.
(٧) الكامل في التاريخ نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص ٢٩.
(٨) ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢، ٢٨٥ الباهر ص ٧٤ - ٧٥.
(٩) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣٠.

بكر سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م: رتب أمور الجميع وجعل فيها من الأجناد من يحفظها [١].

ومن خصائص الإقطاع الزنكي انتقاله من مقطع إلى آخر عن طريق الوراثة أو غيرها، فتشير المصادر إلى أن عماد الدين زنكي قام بنقل طائفة من التركمان مع أميرهم اليارق وأسكنهم بحلب وأعمالها وأمرهم بجهاد الصليبيين، وأعطاهم كل ما استنقذوه منهم: ولم يزل جميع ما فتحوه بأيديهم إلى نحو سنة ستمائة [٢] وقد سار نور الدين على نهج أبيه يدلنا على ذلك قول ابن واصل أن نور الدين كان: من آرائه الحسنة ما يعتمده من أمر أجناده، فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداً ذكراً أقر عليه إقطاعه [٣] ومن ذلك أيضاً ما حدث سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢ عندما هزم جيش نور الدين في هذه السنة أمام الصليبيين بالقرب من حصن الأكراد في المعركة المعروفة بالوقيعة، حيث أصدر نور الدين أوامره بإحضار الأموال والدواب والأسلحة والخيام من دمشق وفرق ذلك على من سلم من عسكره ومن قتل أعطى إقطاعه لأولاده [٤]. وأما انتقال الإقطاع من مقطع إلى آخر من غير وراثة والذي يحدث غالباً إذا تقاعس المقطع عن أداء واجبه أو متى بدر منه ما يخل بالتزاماته الحربية، يدلنا على ذلك ما حدث سنة ٥٦٢هـ/١١١٧م عندما اختبر أسد الدين شيركوه رجاله لمعرفة ما يمكن أن يقدموه إذا اشتبكوا مع الصليبيين والفاطميين في مصر، فأبدى بعضهم تخوفه من ذلك حيث صاح فيهم أحد أمراء نور الدين والذي كان مرافقاً لشيركوه قائلاً: من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع أمرأته، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن ما لنا من إقطاع وجامكية، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه مُنذ خدمناه إلى يومنا هذا ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار [٥]. ويظهر من خلال هذا العرض أنه كان على المقطع في مقابل الموارد المتحصلة من الإقطاع مجموعة من الالتزامات كان يؤديها للسلطان وهي في المرتبة الأولى التزامات حربية أملتها ظروف الجهاد الذي اتصف به عصر الأسرة الزنكية - شملت تقديم العساكر وقت الحرب، فكان المقطع مسؤولاً مسؤولية كاملة عن نفقات عساكره، إذ كان عليه أن يخرج بهم إلى ساحات القتال مزودين بكل مستلزماته من مؤمن وعتاد ودواب وغيرها فضلاً عما يتبع ذلك من تدريبات عسكرية فردية وجماعية لجيشه من أساليب القتال المعروفة آنذاك [٦]، وإلى جانب ذلك كان على المقطع الاضطلاع بحماية إقطاعه من أي اعتداء خارجي، وفي ذات الوقت القيام بمراقبة تحركات الأعداء وتنفيذ بعض الأعمال الحربية ضد مراكزهم [٧]، وصفوة القول فإن نظام الإقطاع الحربي بما اشتمل عليه من واجبات يعاقب عليها المقطع متى قصر في شيء منها كان كفيلاً بإخلاص الأمراء والجند واستماتتهم في أداء واجب

(١) الباهر ص ٦٦، مقومات حركة الجهاد ص ٣٠.
(٢) الباهر ص ٨٠ مقومات حركة الجهاد ص ٣١.
(٣) مفرج الكروب نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣١.
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص ٣١.
(٥) كتاب الروضتين نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص ٣٢.
(٦) مقومات حركة الجهاد ص ٣٢.
(٧) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣٣.

الجهاد في سبيل الله وتحقيق المزيد من الانتصارات ضد أعداء الإسلام والتوسع في الفتوحات لجعل كلمة الله هي العليا، خاصة وأن الزنكيين كانو حريصين على تحري الدقة في توزيع الإقطاعات على أمرائهم وأجنادهم يخصون بها المخلصين منهم، يدلنا على هذا ما ذكرته [١] بعض المصادر من أن عماد الدين زنكي كان يقطع بلاده: لجند يختبرهم ويعرف نصحهم وشجاعتهم[٢]. وعلى هذا النهج سار الملك العادل نور الدين محمود الشهيد.

٢ – الزكاة والخراج والجزية:

تشكل الزكاة والخراج والجزية جزءاً مهمًا من موارد الدولة وتؤخذ حسب أحكام الشريعة الإسلامية فالزكاة ركن من أركان الدين الإسلامي لا يكمل إسلام المسلم وإيمانه إلا بتأديتها، ولذلك يقبل المسلمون على تأديتها من باب الحرص على دينهم دونما إكراه من الدولة، وإن كان من حق الدولة إلزام من يمنعها من المسلمين بتأديتها لأنها ركن من أركان الدين من حقوق المسلمين يجب على الدولة جمعها وتنظيم صرفها في مصالحهم وقد ثبت بالتجربة من خلال التاريخ الإسلامي في عهد الرسول ρ والخلفاء الراشدين، والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز [٣] أن الزكاة تساهم إلى حد كبير في سد نفقات الدولة إذا كانت الدولة تطبق الإسلام على حقيقته وكان نور الدين يحكم أرضاً اشتهرت بكثافة نشاطها الزراعي وبكثرة ذمييها ويسوس مجتمعاً بلغ من النضج والالتزام ما يجعل الواجدين فيه يهرعون لتقديم زكاة أموالهم قبل أن ترغمهم الدولة على الدفع، فكانت هذه الموارد الثلاثة تشكل ضماناً ثابتاً لموازنة مالية الدولة وحماية خزائنها من العجز والإفلاس[٤].

٣ – الغنائم وفداء الأسرى:

كانت الغنائم تمثل بحق - مورداً من أوسع موارد الدولة التي كانت دوماً في (حالة حرب) مع الأعداء وكانت نتائج الحرب المادية والمعنوية تأتي لصالحها في أغلب الأحيان يقول سبط ابن الجوزي على سبيل المثال: عاد نور الدين بعد فتح حارم عام ٥٥٩هـ إلى حلب بالأسارى، ثم فادهم وكان قد استفتى الفقهاء فقال قوم: يقتل الجميع، وقال آخرون: يفادي بهم، فمال نور الدين إلى الفدية فأخذ منهم ستمائة ألف دينار، معجلاً، وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك، فكان نور الدين يحلف بالله أن جميع ما بناه من المدارس والربط والمارستانات وغيرها من هذه المفادة، وجميع ما وقفه منها، وليس فيها من بيت المال درهم واحد [٥] ستمائة ألف دينار حصيلة معركة واحدة، فكيف سائر المعارك التي انتصر فيها نور الدين والتي تغطي فترة حكمه من أقصاها إلى أقصاها؟ ثمة رواية أخرى فيها إشارة محددة إلى مبالغ بالذات كسبتها الدولة عن طريق المفاداة: وقع صاحب طرابلس أسيراً بيد نور الدين فأطلق سراحه لقاء ثلاثمائة ألف دينار ومائة وخمسين أسيراً من المسلمين. هذا ما يقوله ابن الجوزي

(١) المصدر نفسه ص ٣٤.
(٢) الباهر ص ٣٧.
(٣) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٠.
(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٢١.
(٥) مرآة الزمان (٢٤٧/٨ - ٢٤٨) نور الدين محمود ص ١٢٤.

[١]. أما أبو شامة فإنه يطرح أرقاماً أخرى: مائة وخمسون ألف دينار، وفكاك ألف أسير من المسلمين[٢] ومهما كان الأمر فإن المبالغ النقدية والعينية المترتبة على فداء الأمير الصليبي كانت كبيرة حقاً فإذا ما أضفنا إلى ذلك ما كان يأتيه من الأقاليم التي فتحها كمصر واليمن وغيرها [٣]، على شكل ضرائب وغنائم ومعطيات عينية أدركنا كم كان واسعاً كبيراً هذا المورد الذي كان يجيء عن طريق النشاط الحربي [٤].

٤ – الأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين:

والتي آلت خزائنها العظيمة إلى نور الدين - لحسن الحظ - بدلاً من أخيه الأكبر سيف الدين غازي، حيث كان زنكي قد احتفظ بها في قلعة سنجار على الطريق بين الموصل وحلب، فلما آلت هذه المدينة إلى نور الدين عام ٥٤٤هـ وضع يده عليها ونقلها معه إلى حلب، فكانت كما يصفها كل من ابن الأثير وابن العديم (كثيرة جداً) [٥]، وأنها نقلت على ستمائة جمل ما خلا البغال وكان من بين الأخيرة ستة وستون حملت عملة من الذهب [٦].

٥ – الأمانة العظيمة التي تميز بها نور الدين وحكومته الرشيدة:

تميز بأمانة عظيمة تجاه أموال الأمة والتي سعى إلى إلزام موظفيه بها، وفرض عليهم رقابته اليقظة الدائمة كيلا يجنحوا باتجاه استغلال مناصبهم لحسابهم الخاص، وإن لنا أن نقدّر حجم الخسائر التي كانت ستمنى بها مالية الدولة لو ابتليت بحاكم جشع وموظفين لا يعرفون غير تنمية جيوبهم، أسوة بما كان يفعله الكثيرون من الحكام والموظفين وإن لنا أن نقدر - بالمقابل - ما كسبته خزانة الدولة من جراء الحماية الصارمة التي فرضتها تقوى نور الدين وإيمانه والتزامه واختياره الدقيق لكبار موظفيه وحسابه الشديد معهم [٧]، فقد سار على نهج عمر بن عبد العزيز، وعني بالحيلولة بين الولاة وبين أن يكون همهم الأول من مناصبهم جمع الأموال لأنفسهم. والأغلب أن ذلك عوّض النفقات التي اقتضتها إصلاحاته ضعفين [٨] وما قيل عن عمر ينسحب بالضرورة على نور الدين [٩]، كما أن وجود الحكومة الرشيدة التي كان يقودها نور الدين ساهم على تحقيق ما أراد، فقد اعتمد في إدارته لدولته الواسعة على حشد من العلماء والفقهاء المشهورين بالأمانة والاستقامة والكفاية وكان أغلبهم قد مارس العمل مع الحكام والأمراء قبل العمل مع نور الدين، فاكتسب خبرة كبيرة في إدارة

(١) المنتظم (٢٤٩/١٠) نور الدين محمود ص ١٢٤.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٢٤.
(٣) البرق ص ١٢٣ - ١٢٤ نور الدين محمود ص ١٢٤.
(٤) نور الدين محمود ص ١٢٤.
(٥) زبدة حلب (٢٩٨/٢) نور الدين محمود ص ١٢٤.
(٦) الباهر ص ٩٨ نور الدين محمود ص ١٢٥.
(٧) نور الدين محمود ص ١٢٥.
(٨) الدولة العربية وسقوطها ص ٢٩٦ ترجمة عبد الهادي أبي ريدة.
(٩) نور الدين محمود ص ١٢٥.

شؤون الدولة فكان نور الدين يستشيرهم ويعقد لهم الاجتماعات لبحث الأمور الهامة [١]، وكان نور الدين يعتبر نفسه خازناً لأموال المسلمين يجب عليه أن يصرفها في مصالحهم فقط [٢]، وألزم نوّابه ورجال دولته بهذا الفهم الذي يرقى إلى أعلى مستويات الأمانة والإحساس بالمسؤولية، وفرض رقابته الصارمة على بيت المال في مركز الدولة وفي الولايات ولم يتردد في محاسبة نوابه في الأقاليم إذا أحسّ منهم ميلاً للمحافظة في هذا المجال[٣]، وأنزل عقوبة شديدة بأحد موظفيه بعد أن ثبت أنه استغل مركزه وأخذ من الأموال العامة فوق ما يستحق من راتبه [٤]، قد مرّ ذكرها، ويكفي أن نتذكر حادثة المال الذي وجده في الخزينة ولم يكن يعلم عنه من قبل، فأمر برده إلى القاضي كمال الدين الذي كان قد أرسله لبيت المال ليرده إلى أصحابه [٥]. لنعلم كم كان الرجل صارماً، ودقيقاً في مسألة الحلال والحرام فيما يتعلق بالأموال العامة فحفظت وانعدم التسّرب منها إلى حد كبير إلى جيوب الولاة والموظفين[٦].

لقد انتصر نور الدين على نفسه قبل أن يواجه أهله ورعيته بسياسته التقشفية، فاستطاع بإيمانه القوي أن يتجرّد من أهواء الدنيا ومغريات الملك ومن مظاهر البذخ والترف التي كان يعيشها غيره من الحكام غير مبالين بما تعانيه خزينة الدولة بسبب ذلك، وألزم نفسه بالعيش المتواضع دون أن يفقد شيئاً من هيبة السلطان وقوة الحكم، بل كان كما قيل: من شاهد من جلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من ألطافه وتواضعه ما يحيُّره [٧]، فاقتدى به أهله وأمراؤه وقادته والتزموا البساطة في حياتهم، ثم انتقلت خصائله إلى العامة من الناس فكان لهذه السياسة أثرها البعيد في توفير الأموال التي كانت تهدر في مجالات اللهو والبذخ والترف فصارت تصرف في وجوه الخير والمصلحة العامة [٨].

٦ – سيادة الأمن والاستقرار الداخلي:

كانت النزاعات والحروب بين الإمارات الإسلامية المتعددة في بلاد الشام قبل توحيدها تستهلك أغلب موارد هذه الإمارات وتقضي على الأجواء المناسبة لاستغلال الأرض ورواج التجارة فيما بينها، فكانت الأوضاع الاقتصادية سيئة فلما توحّدت بلاد الشام كلها تحت زعامة نور الدين زالت أسباب التوتر والنزاع وساد الأمن والاستقرار على الجبهة الداخلية وأصبحت الجهود كلها موجهة نحو الخطر الخارجي المتمثل بالفرنجة الذين أصبحوا بفضل جهود نور الدين العسكرية في وضع دفاعي لا يشكلون خطراً مباشراً على المدن الإسلامية في بلاد الشام كما كانوا من قبل، فانصرف

(١) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٩٠.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩٠.
(٣) المصدر نفسه ص ١٩٠.
(٤) المصدر نفسه ص ١٩٠.
(٥) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٨٩.
(٦) المصدر نفسه ص ١٨٩.
(٧) عيون الروضتين نقلا عن دور نور الدين محمود ص ١٨٩.
(٨) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٩.

الناس إلى أعمالهم الزراعية والتجارية وهم مطمئنون، فتحسنت الأحوال الاقتصادية وكثر العمل وكان من نتيجة ذلك كله زيادة مقادير الزكاة التي تشكل المورد الرئيسي لخزينة الدولة. (١).

٧ – مساهمة الأثرياء:

أثرت جهود نور الدين وقيادته الحكيمة في إيجاد مجتمع التكافل والتضامن في بلاد الشام وصار التعاون والتراحم والمودة والمواساة سمات بارزة في المجتمع، وأخذ الأثرياء من أبناء الأمة يسارعون إلى أعمال الخير تأسياً بسلطانهم وطلباً للأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى، فتمّ بناء الكثير من المدارس والمساجد ودور الأيتام من قبل القادة والأمراء والولاة وغيرهم من الأثرياء حتى صارت هذه الأعمال من ظواهر المجتمع الدائمة وامتدت بعد دولة نور الدين واتسعت في زمن الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وما يهمنا هنا أن هذه المساهمات ساعدت في توفير الأموال لخزينة الدولة(٢).

٨ – المعاهدات والاتفاقات:

فقد شكلت المعاهدات والاتفاقات مورداً مالياً طيباً للدولة الزنكية ففي سنة ٥٥٧هـ/١١٥٦م سار نور الدين بقواته لمحاصرة حارم التابعة لإمارة أنطاكية، وجمع الصليبيون قواتهم لصده عنها، وكان في هذا الحصن رجل صليبي: من دهاة الأفرنج، يرجعون إلى رأيه نصحهم بمفاوضة نور الدين فوافق على ذلك مقابل أن يعطوه نصف أعمال حارم (٣)، كما حدث سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م أن وافق نور الدين على إطلاق سراح بوهيمند (١١٦٣ - ١٢٠١م) أمير أنطاكية بعد أن دفع فدية كبيرة وتعهد أن يرسل مالاً كثيراً وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين عنده، وفي السنة نفسها شاطر الصليبيين في أعمال طبرية، وقرروا له من المناطق التي يشاطرهم عليها. مالاً في كل(٤) سنة.

٩ – دعم الخليفة العباسي:

كان نور الدين يدين بالتبعية السياسية للخلافة العباسية السنية في بغداد فتحصل على إضفاء صفة الشرعية على قيام دولته والحصول على التأييد منها في أعماله الجهادية حرصاً على ما يبدو في ذات الوقت على طلب المساعدة المالية منها أحياناً لدفع حركة الجهاد ضد الصليبيين يدلنا على ذلك ما ذكر أن نور الدين محمود لم يتحرج في أن يطلب من الخليفة العباسي المستنجد بالله النفقات والأسلحة لسد الكلمة ودفع الملمة على أثر الزلازل التي اجتاحت بلاد الشام سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م (٥).

١٠ – سياسته الزراعية:

عهد نور الدين إلى اعتماد سياسة زراعية سليمة كانت بمثابة المفتاح الذي أغفله كثير من الساسة لتنمية الدخل القومي تنمية طبيعية في عصر كان النشاط الزراعي فيه يمثل الفاعلية المحورية في عالم

(١) دور نور الدين محمود في نهضة الأمة ص ١٩١.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩١.
(٣) مفرج الكروب (١٢٨/١) مقومات حركة الجهاد ص ٣٥.
(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن مقومات حركة الجهاد ص ٣٥.
(٥) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣٥.

الاقتصاد، فهو من جهة سعى إلى حماية المزارعين والفلاحين من كافة صنوف الأذى والتخريب والعدوان التي كان يمكن أن تلحق كدهم من جراء حالة الحرب المستمرة، وتحرك الجيوش الدائم وتحوّل الأرض الشامية إلى ساحة قتال لا تعرف طعم السلم إلا قليلاً.. وقد مرّ بنا كيف أن نور الدين خلال هجماته المستمرة على دمشق طيلة الأربعينيات كان يشدد على أصحابه وجنده ألاّ يفسدوا المزارع والضياع والقرى وألاّ يأخذوا شيئاً من مزارع ما بغير حق.. كما أنه أعلن نفسه حامياً للفلاحين، ونتذكر رواية ابن القلانسي: سمع نور الدين نبأ تحالف دمشق مع الصليبيين فقال: لا أنحرف عن جهادهم. وهو مع ذلك كافاً أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع وإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم. وكتب إلى زعماء دمشق: إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالباً لمحاربتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشتت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج، وعدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم [١]. وقد نجح نور الدين في كسب الفلاحين ومثلوا دعماً حربياً متجدداً للجيش النوري وساعدتهم الدولة على الاستفادة من إمكانتهم المتميزة في مجال الزراعة، فقد امتازت أقاليم الدولة النورية بخصوبة التربة بصفة عامة وتوافر مصادر الري سواء من الأنهار أو الأمطار، أو الينابيع، والآبار وحرصت الدولة على تشييد شبكة محكمة من القنوات لإيصال مياه الأنهار إلى المناطق المزروعة، وقد أنتج القطاع الفلاحي العديد من المحاصيل الزراعية التي دخل بعضها في نطاق التصنيع مثل القطن وقصب السكر، والسمسم، والزيتون وغيرها [٢].

١١ – المجال الصناعي:

فقد امتازت الدولة النورية بتوفر المواد اللازمة للتصنيع وكذلك العمال المهرة ووسائل النقل، وازدهرت حينذاك صناعة المنسوجات القطنية والصوفية والحرير خاصة ثياب الدمسك [٣] والموسلين، وكذلك صناعات الورق، والزجاج وغيرها. ويلاحظ أنه من خلال استعراض عدد من الصناعات في عهد الدولة النورية يمكن استنتاج عدة ملاحظات مهمة تدور حول معوقات التقدم حينذاك، وهي أن الآلات التي أمكن استخدامها لهم معقدة، ولم توجد المعدات التي يمكن أن تدار على طريق المعادن التي وجدت في بلاد الشام والجزيرة وظلت الطاقة الأساسية متمثلة في حركة الماء لإدارة الطواحين، كذلك لم يتم استغلال مناجم الحديد والنحاس في بيروت والموصل ومناطق أخرى في صناعات ثقيلة بل إن استخدام الحديد انحصر في صناعة أدوات الطب [٤] والجراحة، وكذلك الأسلحة وأيضاً في بعض أدوات الصناعة البسيطة، وهذا الوضع بالطبع حد من نمو حركة التصنيع، ومن جهة أخرى حرصت الطبقة الوسطى التجارية على استثمار رأس مالها في حركة التجارة

(١) نورالدين محمود الرجل والتجربة ص ١٢٢.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية ص ٤٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٣.
(٤) سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ص ١٥٩.

الداخلية والخارجية النشطة ولم تشأ استثماره في المجال الصناعي [١]، حيث رغبت في توظيفه في المجال الذي توارثته وسبرت أغواره، وهكذا فإن عدم حدوث تغير حقيقي في وسائل الإنتاج، وعدم التوصل إلى استخدام الطاقة، كذلك عدم توافر وعي صناعي للطبقة الوسطى التجارية، أدى إلى أن تكون بلاد الشام والجزيرة في عهد نور الدين محمود معاصرة لنهضة صناعية لا ثورة، حيث استمرت أساليب الإنتاج التقليدية [٢].

١٢ – القطاع التجاري:

اتبعت الدولة النورية سياسة انطوت على الرعاية الكاملة للتجارة الداخلية وكذلك الخارجية واستطاعت التحكم في طرق التجارة في إقليم الجزيرة وخاصة بعد استرداد الرها جعلها تتحكم في طرق التجارة التي تربط بين العراق وآسيا الصغرى من ناحية وبلاد الشام من ناحية ثانية. كما أن سيطرة نور الدين بعد ذلك على الأراضي المصرية وضمها لمشروع الجبهة الإسلامية المتحدة بعد القضاء على الدولة الفاطمية في القاهرة سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م مكنه من الاتصال بتجارة الهند والشرق عبر ممرين مائيين هما الخليج العربي والبحر الأحمر [٣]. وكانت العشور يتم تحصيلها على التجارة التي تمر عبر حدود الدولة النورية سواء الداخلية أو الخارجة منها، وهي أشبه ما تكون بالرسوم الجمركيّة في العصر الحاضر، ويقوم بتحصيلها موظف يقال له: (العاشر) أي: الذي يأخذ العشور [٤]، ولم يكن لهذه الضريبة وجود في عهد النبيِّ ρ، وخليفته الأوَّل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - لأنَّ تلك الفترة كانت فترة دعوة إلى الإسلام، والجهاد في سبيل نشره، وبناء الدولة الإسلاميَّة، فلما اتسعت الدولة في عهد الخليفة عمر - رضي الله عنه - وامتدَّت حدودها شرقاً وغرباً وصار التبادل التجاري مع الدول المجاورة ضرورة تمليها المصلحة العامَّة، ورأى الخليفة عمر - رضي الله عنه - أن يفرض تلك الضَّريبة على الوارد إلى دار الإسلام، كما كان أهل الحرب يأخذونها من تجَّار المسلمين القادمين إلى بلادهم، معاملة بالمثل [٥] وقد أجمع المؤرَّخون [٦] أن أوَّل من وضع العشر في الإسلام عمر بن الخطاب[٧] - رضي الله عنه.

اهتمت الدولة الزنكية بالحركة التجارية وإقامة العدد من المؤسسات التجارية مثل الخانات [٨]، والفنادق [٩]، وأورد ابن عساكر العديد منها في مدينة دمشق، كذلك شجعت التجار اليهود على المشاركة في النهضة التجارية التي شهدتها البلاد وقد استقروا في مناطق خطوط التجارة العالمية

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية ص ٤٣.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٣.
(٣) مقومات حركة الجهاد ضد الصليبيين ص ٣٧.
(٤) الخراج لأبي يوسف ص ٢٧١، اقتصاديات الحرب ص ٢٢٣.
(٥) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي ص ٣٢٧.
(٦) سياسة المال في الإسلام ص ١٢٨.
(٧) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي ص ٣٢٧.
(٨) الحدود الإسلامية البيزنطية، فتحي عثمان (٢٣٤/١).
(٩) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية ص ٤٤.

المارة بمدن الشام والجزيرة الكبرى مثل، دمشق وحلب، وشيزر، ومعرة النعمان والموصل وغيرها، ففي دمشق مثلاً وجدوا بأعداد كبيرة وعرفت حارة باسمهم [١]. وقد تزايدت أعدادهم بها حتى بلغوا الآلاف ووصفوا بأن منهم (ذوو اليسار) [٢]، أي أنهم اشتغلوا بالتجارة حيث كانت أكثر المجالات المحققة للثروة وكذلك وجدوا مجالاً متسعاً في أعمال الصيارفة [٣].

وقد تاجرت الدولة النورية مع العديد من الكيانات السياسية في عالم البحر المتوسط، فهناك الإمبراطورية البيزنطية، والقوى التجارية الإيطالية مثل جنوة، والبندقية، وبيزا، وأمالفي، [٤] وتمكن الإيطاليون على نحو خاص من زيادة حجم تجارتهم مع بلاد الشام والجزيرة، وأقام قناصلهم في المدن الشامية والجزرية مثل حلب، ودمشق، والموصل وغيرها، حيث عملوا على رعاية مصالح بلادهم الاقتصادية [٥] ولا مراء في أن ذلك العهد قد شهد صحوة للطبقة الوسطى التجارية يدل على ذلك ما نلاحظه من تخصص التجار في العمليات التجارية وانقسامهم إلى فئات تقوم بجانب من النشاط التجاري في العمليات التجارية وانقسامهم إلى فئات تقوم بجانب من النشاط التجاري المتخصص فهناك الخزانون ثم الركاضون، والمجهزون [٦]، ويكشف لنا الدمشقي المزيد من التفاصيل عن كل نوعية منهم كذلك ظهرت عدة أسرات تجارية كبيرة النفوذ مثل أبناء الرحبي ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م الذي عاصر نور الدين محمود، فقد ترك أبناء لهم اشتغال جيد في هذا الفن [٧]، ووجدت في حلب بيوتات قديمة معروفة بالثروة [٨] يتوارثونها وطبيعي أنها نجمت عن النشاط التجاري في مدينة اشتهرت بذلك الطابع. يضاف إلى ذلك أن تجارة الشرق الأدنى خلال عصر الحروب الصليبية قد شهدت نهضة تجارية لم تكن موجودة من قبل [٩]، ودفعتها دفعة كبرى إلى الأمام [١٠]، وانطبق ذلك على بلاد الشام والجزيرة، حينذاك نظراً للموقع الجغرافي المتوسط ومرور العديد من الطرق التجارية العالمية، وقد فرضت الدولة النورية المكوس على النشاط التجاري، وكانت حلب أحد المراكز الرئيسية لجمع تلك الضرائب التجارية حيث جبيت فيها أموال الروم وديار بكر ومصر والعراق [١١] ويبدو أن الدولة النورية احتكرت تجارة بعض السلع الإستراتيجية ولم تنشأ أن تجعلها في أيدي بعض كبار التجار الأثرياء خوفاً من احتكارها، وتزايد ثرواتها على حساب احتياجاتها، واحتياج السوق الشامي واستقراره، ويبدو أنها احتكرت بعضها كتجارة الحديد

(١) خطط مدينة دمشق ضمن كتاب ابن عساكر ص ١٠٩ عبد القادر ريحاني.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية ص ٤٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٥.
(٤) المصدر نفسه ص ٤٥.
(٥) المصدر نفسه ص ٤٥.
(٦) الإشارة إلى محاسن التجارة للدمشقي، تحقيق الشوربجي ص ٧٤، ٧٥.
(٧) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ٢١٧.
(٨) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٤٦.
(٩) تاريخ التجارة ص ١٩١.
(١٠) عالم العصور الوسطى في النظم والحضارات ص ٢٠٢.
(١١) فن الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية ص ٤٦.

والأخشاب والقار وهكذا فعندما توقفت في إحدى السنوات عن مطالبة أهل الشام بالخشب أشارت المصادر إلى ذلك كحدث مهم وجديد ولذا وجدنا ابن عساكر يمتدح نور الدين محمود لذلك ببعض الأشعار ووقع ذلك في عام ٥٦٧هـ فقال:

لمـــا ســـمحت لأهـــل الشـــام بالخشـــب ::: عوضـــت مصـــر فيهـــا مـــن النشـــب [١]

إن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي أكثر ما غنمت واستفادت بعد الفتوحات ونصرة الإسلام من نشاطها التجاري إذ أخضعت تجارة شمال الشام ومرت بها الطرق التجارية القادمة من شرق ووسط آسيا في أوروبا، وكذلك الطرق المارة من شمال العراق إلى شمال الشام وأيضاً القادمة من دمشق، فضلاً عن تلك المتجهة إلى الإمبراطورية البيزنطية عبر مناطق نفوذ سلاجقة الروم، أما دمشق فقد غدت من أهم المراكز التجارية الشامية، ومر بها طريق الحجاج الشاميين وكذلك القوافل التجارية القادمة من غرب أوروبا إلى شمال إفريقيا إلى الشام، أما الموصل فقد اشتهرت بنشاطها التجاري، وأنها مثلت حركة اتصال مؤثرة وحيوية بين تجارة شمال العراق وشمال الشام بصفة خاصة، وتجارة الإقليميين المتجاورين بصفة عامة [٢] ويلاحظ أن الدولة النورية من خلال توسعها الخارجي ساهمت في إحكام قبضتها على قسم حيوي من البحر المتوسط، ومن المؤكد فقد تمكنت من إخضاع الساحل الممتد من قرب غزة إلى طرابلس الغرب، ولا نغفل أن الدولة النورية بإحكام قبضتها على برقة وجبل نفوسة، قد أخضعت قسماً مهماً من تجارة الشمال الإفريقي خاصة تجارة الذهب والرقيق وهما عصب تجارة العالم الإسلامي في ذلك العهد، فإذا أضفنا إلى تلك المحطات التجارية البرية، المحطات البحرية مثل عيذاب على البحر الأحمر ودمياط والإسكندرية على البحر المتوسط أدركنا كم كان على كافة القوافل المارة عبر كافة تلك الطرق والمحطات التجارية المذكورة، ولا مراء في أن خزينتها ربحت أموالاً طائلة من وراء ذلك على نحو دعم مشاريعها التوسيعة [٣] وقد تمكنت الدولة النورية من فتح أسواق جديدة في كافة المناطق التي أخضعتها لسيطرتها السياسية [٤].

أ – **مبدأ التخصص في التجارة الخارجية**: شهدت التجارة في عهد تلك الدولة تطوراً مهماً من جراء التوسع الخارجي، فبعد أن كانت العمليات التجارية مرتبطة بحلب - قلب تجارة شمال الشام - صار هناك مبدأ التخصص في التجارة الخارجية، وفي قطاعات إقليمية منسقة وموزعة بين قسم من غربي قارة آسيا والشمال الأفريقي ويمكن ملاحظات ذلك من خلال ثلاثة محاور:

* **المحور الأول**: المتاجرة مع الكيان الصليبي، فقد حتمتها الطبيعة الجغرافية للدولة النورية، إذ كانت دولة داخلية حبيسة ليست لها موانئ على الساحل الشامي، وحيث أن تلك الموانئ خضعت للسيطرة الصليبية، فإنها مثلت دور الوسيط التجاري بين تلك الدول والأسواق التجارية الدولية التي

(١) الخريدة نقلاً عن فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٤٧.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٣٨.
(٣) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٣٨.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٣٩.

استهلكت منتجاتها التجارية مثل الإمبراطورية البيزنطية وجنوب أوروبا وغربها ومن المعروف أن ميناء صيدا كان ميناء تجارياً لدمشق، وكذلك كان ميناء طرابلس مجالاً لتصريف منتجات كل من حماة وحمص ولا نغفل هنا دور القوى التجارية الإيطالية مثل مدن جنوة، والبندقية، وبيزا، وأمالفى، دورها في دعم النشاط التجاري الصليبي [١].

* **المحور الثاني**: تجارة التوابل فقد نهض بأمرها الكارمية، فقد احتلت أهمية كبيرة في ميزانية الدولة ويلاحظ أن هيمنة الدولة النورية على تجارة التوابل الهندية قد تأتي لها بعد أن سيطرت على مصر وقضت على النفوذ الفاطمي بها، واحتاج الأوروبيون على نطاق متسع لتلك التوابل التي حددها لوبيز بأنها كانت تشمل أصنافاً متعددة من السلع المستخدمة في الزينة والعطور، والعقاقير، والصيانة الكيماوية، والطهو [٢].

* **المحور الثالث**: تجارة الرقيق والذهب من بلاد السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى، فقد مثلت أهمية بالغة للدولة النورية، وقد تهيأ لها أن تشارك في تلك التجارة بصورة متزايدة بعد أن مدت سيطرتها السياسية إلى مصر، وأمنتها بالسيطرة على برقة، وجبل نفوسة [٣] بطرابلس، وكذلك بإحكام قبضتها على النوبة أما تجارة الرقيق فكانت لها أهمية خاصة [٤] وازدهرت تجارة الذهب مع إفريقيا وعبر الصحراء الكبرى وغنمت من وراء ذلك غنائم عظيمة، ولكن ينبغي أن نُدرك أن امتدادها إلى تلك الحدود جاء متأخراً أي بعد سقوط الدولة الفاطمية في مصر عام ٥٦٧هـ/١١٧١م وبالتحديد قبل ثلاث سنوات من وفاة نور الدين محمود نفسه [٥].

ب – التجارة بين الدولة النورية ومملكة بيت المقدس: لم تقطع الدولة النورية مملكة بيت المقدس اقتصادياً لاسيما التجارة، بل إن القوافل استمرت تتردد بين الجانبين، لذا فإن تلك المملكة أفادت من وراء المتاجرة مع عدوها الرئيسي، وذلك من خلال عائد المكوس المفروضة ومن المرجح أن الازدهار التجاري الذي شهده ميناء عكا بالذات يرجع - في أحد أسبابه - إلى المتاجرة مع الدولة النورية إذا اعتبر أحد الموانئ الرئيسية الهامة لتصريف تلك الدولة وقد أثرت سياسة التوسع النورية والتداخل الذي جرى بين تلك الدولة والكيان الصليبي على المستوى التجاري، أثرت على سياسة المملكة اللاتينية إذ أنها لكي تتاجر مع المسلمين كان عليها أن تتبع الموازين والمكاييل المستعملة في البلاد من قبل [٦]، كما كان الصليبيون في حاجة إلى استعمال نوع من العملات يقبلها التجار المسلمون، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون نوع من العملات يقبلها التجار المسلمون، وفي الوقت الذي استعمل فيه الصليبيون العملات النقدية الإغريقية وغيرها، عملت عملة خاصة عرفت بالدينار الصوري وتم استخدامه في التجارة مع المسلمين على أوسع نطاق وقد شابه البيزنت

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٠.
(٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٤١.
(٣) تاريخ المغرب العربي، سعد زغلول عبد الحميد ص ٦٩.
(٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٤١.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٤٤.
(٦) مملكة بيت المقدس، عمر كمال توفيق ص ١٢٤.

البيزنطي وقد نقشت عليه عادة بعض الآيات القرآنية، وبصورة تدريجية صارت الدنانير الصورية أكثر العملات المتداولة انتشاراً في كافة أنحاء بلاد الشام [١]، ويلاحظ أن الهدنات التي عقدتها الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس، كان لها أثرها الفعال على التبادل التجاري بين الجانبين، إذ توقفت عند ذلك المعارك ووجد التجار فرصة سانحة لمرور قوافلهم التجارية دون التعرض لمخاطر الحروب [٢]، وأما الإمارات الصليبية فقد أفادت - شأنها في ذلك شأن المملكة اللاتينية نفسها - من المتاجرة مع الدولة النورية [٣].

ج – **مكانة التجار عند نور الدين زنكي**: تجدر الإشارة أن الدولة النورية حرصت على إرضاء كبار التجار من أجل أن يستمر استثمارهم لأموالهم في عمليات تجارية على أرضها على نحو يدعم اقتصاديات الدولة ويدر الأموال الطائلة على ميزانيتها من عوائد المكوس لا أن تذهب إلى خارجها، في وقت تصارعت فيه مع القوى الإسلامية والصليبية المجاورة ولاسيما الأخيرة ومما ساعد على التعاون بين التجار ودولة نور الدين أن مصالحهما التقت مع بعضهما، فعندما سقطت دمشق في قبضة نور الدين محمود عام ٥٤٩هـ/١١٥٤م وبصورة غير دموية ودون جهد عسكري ضخم، مثل دليلاً واضحاً على أن كبار التجار وجدوا في سلطان حلب قوة مهيئة لنشاطهم التجاري أكثر من ذي قبل، ومن الأمور ذات الدلالة: أن نور الدين عندما دخل المدينة حرص أشد الحرص على الاجتماع مع كبار التجار الدماشقة، من أجل بعث الطمأنينة في نفوسهم، ولتوضيح معالم سياسته الاقتصادية المرتقبة [٤] وقد استفاد التجار من هدنات الدولة النورية مع مملكة بيت المقدس الصليبية في صفقاتهم التجارية [٥].

١٣ – إلغاء الضرائب: أدرك نور الدين محمود أن أي تغيير أساسي في واقع الحياة البشرية نحو الأحسن والأمثل لن يستكمل أبعاده إلاّ من خلال إعادة تشكيل الأرضية الاجتماعية بالحق والعدل بحيث لا يبقى هناك ظالم أو مظلوم، وكان موقفه الفعال ينطلق من الرؤية الإسلامية الموضوعية العادلة التي صاغها كتاب الله وسنة رسوله، ونفذتها سياسات الخلفاء الراشدين والقيادات الإسلامية الملتزمة عبر حركة التاريخ وكان الملك العادل نور الدين محمود زنكي يرى في الدولة مؤسسة لحماية (حقوق) جماهير المواطنين وتقديم أوسع الخدمات لهم وهو التصور الذي يرفض بالكلية صيغ الأخذ والاستلاب والابتزاز والتضييع التي مارستها الكثير من الحكومات عبر التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي، وكان هذا الابتزاز يأخذ يوم ذاك صيغ التوسّع الضرائبي السالب، والامتناع في المقابل عن تقديم الخدمات، ومن أجل تجاوز هذا المنطق الخاطئ سعى نور الدين إلى التحرك صوب الطرف المقابل تماماً، فعمل على تقليص الضرائب إلى الحد الأدنى المتاح، ونشط من أجل تقديم أوسع الخدمات لجماهير أمته وكان يحوط هذا التحرك - الذي أخذ يتصاعد بمرور

(١) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٤٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٨.
(٤) ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٨ - ٣٢٩.
(٥) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٥٥.

الزمن - برقابة صارمة على أموال الدولة العامة ويقطع اليد التي تسعى إلى أن تمتد إليها بسوء، كما يحوطه بانفتاح عجيب على القطاعات الفقيرة المسحوقة من أبناء الأمة، من أجل تفهم واقعها المرير ودفعها إلى مستوى الكفاية يستند في ذلك كله على قدر من السياسات والموارد، كانت قديرة على تغطية متطلبات العطاء الواسعة التي نفذتها دولته الراشدة [١] كانت الضرائب في عصر نور الدين تتزايد مع الزمن حتى أن الفاطميين في مصر كانوا يأخذون على البضائع مكسباً يصل إلى خمسة وأربعين في المائة من قيمتها، وابتكر ظلمة الحكام منها أشياء بعد أشياء ناء الناس بثقلها، حتى استغنى الكثير من التجار عن المتاجرة، وأخفى الناس أموالهم وأصبحوا مع حكامهم في بلاء شديد، وارتفعت نسبة الخراج الذي كان يجبى على الأرض حتى لم يبق للزراع ما ينفقون به، وأصبح الحكام يكلون جباية الضرائب إلى نفر من الجهابذة التزاماً، فيدفع الواحد منهم مبلغاً ثم يجبي أضعافه من الناس [٢]. في عصر كهذا كان إسقاط الضرائب بعداً - ولا شك - كان يثير استغراب الكثير من أبناء ذلك الجيل وهي خطوة إيجابية في طريق العدل الاجتماعي وأخذ نور الدين في تنفيذ سياسته هذه مُنذ فترة مبكرة، وكان حيناً بعد حين - يصدر الأوامر ويعمّم الكتب والمناشير بإسقاط حشود الضرائب (اللا شرعية) التي كانت تأخذ بخناق المواطنين من جراء سياسات الابتزاز التي اعتمدها الحكام والأمراء الذين سبقوا نور الدين، والتي كان لا يزال العديد من الحكام والأمراء الذين عاصروه يعتمدونها، وكانت شعبيّته تزداد باطّراد عجيب في خط متواز مع مقادير الضرائب التي كان يطلقها [٣]. وهذا يؤكد ما قاله الدكتور عماد الدين خليل: بأن إجراءاته الضرائبية جاءت تعزيزاً لسياسته الدائبة من أجل تحقيق العدل الاجتماعي وكان ينتهز الفرص المناسبة كفتح من الفتوح، أو انتصار من الانتصارات، أو حادث من الأحداث أو كلمة ذكرى تهز الفكر وتستجيش عواطف التجرّد والعطاء [٤].

أ – في دمشق عام ٥٤٩هـ: عندما دخل دمشق عام ٥٤٩هـ أصدر منشوراً بإسقاط المكوس والضمانات والضرائب والغرامات المفروضة على عدد من البضائع والأسواق: دور البطيخ، سوق الخيل، سوق البقل، ضمان الأنهار [٥]، سوق الغنم، الكيالة.. وغيرها وقرئ المنشور على المنبر: فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس... والفلاحون والحرم والمتعيشون برفع الدعاء إلى الله سبحانه بدوام أيامه.

ب – في عام ٥٥٢هـ عندما دخل شيزر أصدر منشوره الشهير بإلغاء حشد كبير من المظالم والمكوس شمل معظم أنحاء دولته وجاوز المائة والخمسين ألف دينار وقد جاء فيه:.. هذا ما تقرب به إلى الله تعالى صافحاً، وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعاية - رعاهم الله - لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكفار.. أبادهم الله تعالى... إلخ ثم يعرض من المنشور بعد هذه المقدمة قائمة

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٩٤.
(٢) نور الدين محمود، حسين مؤنس ص ٤٠٢.
(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٩٥.
(٤) المصدر نفسه ص ٩٥.
(٥) أي احتكار توزيع الماء للري والشرب.

بالمواقع التي شملها الإلغاء والمبالغ التي أعفيت من دفعها [١].

ج – في الموصل عام ٥٦٦هـ: عندما دخل الموصل عام ٥٦٦ هـ لم يشأ إلا أن يسقط عن أهليها ما كانوا يرزحون تحته من الغرامات والضرائب والمكوس، وشمل ذلك أيضاً عدداً من المدن الجزرية كالخابور ونصيبين وغيرهما، وأصدر بذلك منشورات من إنشاء العماد الأصفهاني لكي يقرأ على الناس جاء فيه: وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال فسحقاً للسحت، وسحقاً للحرام الحقيق بالمقت.. وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة وإزالة كل جهة مشتبهة، ومحو كل سنة سيئة شنيعة وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة فلا يبقى في جميع ولايتنا جور جائر جارياً.. وهذا حق الله قضيناه وواجب علينا أديناه [٢].

د – في مصر عام ٥٦٦هـ: فقد رفع صلاح الدين في مصر في عام ٥٦٦هـ: جميع المكوس صادرها ووارداها جليلها وحقيرها [٣] ويبين ابن الأثير كيف أن المكس في مصر كان يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون دينار: فأطلقها نور الدين، وهذا لم تتسع له نفس غيره [٤] ويؤكد ابن العديم أن عام ٥٦٧هـ شهد حملة شاملة أخرى من حملات نور الدين لإسقاط المظالم والمكوس [٥].

س – وفي عام ٥٦٩هـ السنة التي توفي فيها نور الدين قام بحملة تطهير أخرى للضرائب فأسقط ما أطلق عليه (فريضة الأتبان) في بلاد الشام، وأصدر بذلك منشوراً من إنشاء العماد الأصفهاني. وقد اطلع أبو شامة على نسخة المنشور وعلامته بخط نور الدين (الحمد لله)، ومما جاء فيه: وبعد: فإن من سنتنا العادلة وعوائد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف، وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنه الظالمون من جائرات الرسوم وما نزال نجدّد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ونصفّها من الشبهة والشوائب، ونلحق ما يعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب تقرباً إلى الله [٦] تعالى ويلخص العماد الأصفهاني الوضع الضرائبي في السنة التي توفي فيها نور الدين بأنه لم يبق حينذاك من الضرائب سوى الجزية والخراج.. وما يحصل من قسمة الغلات على قوائم المنهاج [٧] وقد مرّ الحديث عن إلغاء المكوس مفصلاً عند حديثنا عن العدل في دول نور الدين محمود إن نور الدين محمود في سياسته الاجتماعية والمالية يظهر حرصه العجيب على الأموال العامة وأموال الأمة التي هي حصيلة كدّها ودمعها وعرقها، سواء كان هذا المال ملكية خاصة في أيدي الناس أم عامة في أيدي الدولة.

---

(١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ٩٦ نقلاً عن كتاب الروضتين.
(٢) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ٩٨.
(٣) الباهر ص ١٦٦ نورالدين محمود ص ٩٨.
(٤) نور الدين محمود ص ٩٩.
(٥) البرق ص ١٤٣ نور الدين محمود ص ١٠٢.
(٦) البرق ص ١٤٣ نور الدين محمود ص ١٠٢.
(٧) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٠٣.

و – حمايته للرعية من جشع التجار: كان رحمه الله حريصاً على حماية الرعية من أي مظالم قد تقع عليهم ويوماً حضر إليه جماعة من التجار وشكوا إليه أن القراطيس (أجزاء الدينار) كان كل ستين منها بدينار فصار سبعة وستون دينار، وأنها تتعرض باستمرار للزيادة والنقصان مما يلحق بهم الكثير من الخسائر وأشاروا عليه أن يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير بدلاً من القراطيس فسكت وقتاً طويلاً ثم قال: إذا ضربت الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأني خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد منهم عنده عشرة آلاف وعشرون ألف قرطاس، إيش يعمل بها، فيكون ذلك سبباً لخراب بيته ورفض من ثم - الاستجابة لمطالب التجار [١].

ز – الأموال التي خلفها أمير شيزر: وعندما دخل شيزر عام ٥٥٢هـ بعد أن خربتها الزلازل - لم يكن لينسى أن هنالك مالاً كثيراً خلفه أميرها السابق وأن عليه المطالبة به والبحث عنه لأنه أصبح جزءاً من أموال الأمة، ويذكر ابن العديم كيف أنه سأل زوجة الأمير عن هذا المال وهددها وكيف أنها ذكرت له أن الدار سقطت عليها وعليهم وأخرجت هي حية من دونهم وأنها لا تعلم شيئا، وإن كان ثمة شيء فهو تحت الأنقاض [٢]، ولا ندري إن كان المال قد عثر عليه أم لا؟ ولكن الأهم من هذا هو دلالة الموقف نفسه [٣].

ح – خراج معرة النعمان: ويحدثنا أبو طاهر الحميدي الفقيه: كنت عند نور الدين في دار العدل بدمشق وقد أخرج جريدة (سجلّ) خراج الأملاك فجعل ينظر فيها، فلما انتهى إلى أهلها فقال: رفع إليّ الخبر من الثقاة أن جميع أهل المعرة يتقارضون الشهادة فيشهد أحدهم لصاحبه في دعوى ملك ويشهد له هذا في دعوى أخرى، وإن الملك الذي بأيديهم إنما حصل لهم بهذا الطريق، وكانت معرة النعمان قد سقطت بأيدي الصليبيين حيناً من الدهر ثم استعادها المسلمون مما سبب ضياع المستندات الخاصة بالملكية، فقلت له: أيها الملك إن الله أوجب عليك العدل في رعيتك فانظر واكشف وتوقف في الأمور إذا رفعت إليك، فإن أهل المعرة خلق كثير، كيف تستمدّ تواطؤهم على شهادة الزور وانتزاع الأملاك من أربابها بمجرد هذا القول؟ لا يجوز!! فأطرق نور الدين وقتاً طويلاً ثم قال: إني أمسكها عليهم ثم أكشف عنها بعد ذلك والتفت إلى كاتبه قائلاً: اكتب إلى الوالي بالمعرة ليمسك جميع الملك ريثما يستجمع البينات في ذلك [٤].

ط – اختيار أصحاب الأمانة في الإشراف على المشاريع: عندما قرر نور الدين بناء الجامع الكبير في الموصل عام ٥٦٦هـ وليكون مسجداً جامعاً للمصلين ومدرسة كبيرة للدارسين، لم يتسرع في اختيار الرجل الذي سيتولى أمر الإشراف على بنائه، لاسيما وأنه عائد إلى حلب، والموصل بعيدة عن رقابته المباشرة وإنما بحث عن المشرف الأمين الذي يطمئن إليه فكان عمر الملاء الرجل الصالح الكادح كما يصفه المؤرخون، ويحدثنا العماد الأصفهاني شاهد العيان عن الرجل فيقول: إنما

(١) الكواكب ص ٢٤ نور الدين محمود ص ١٠٥.
(٢) زبدة حلب (٣٠٧/٢) نور الدين محمود ص ١٠٥.
(٣) نور الدين محمود ص ١٠٥.
(٤) الكواكب ص ٧١ نور الدين محمود ص ١٠٦.

سمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوى بها وكان يهب كل ما يصل إليه ولا يستبقى لنفسه شيئاً وكان العلماء والفقهاء والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبركون بهمته، وكان نور الدين من أخصّ محبيه، ويستشيره في حضوره ويكاتبه في مصالح دولته [١]. هذا وقد أنفقت على الجامع الكبير أموال كثيرة واشترى عمر الملاء الأملاك المحيطة به من أصحابها بأوفر الأثمان، وعندما تم إنشاؤه وحضر نور الدين لافتتاحه عام ٥٦٨هـ تقدم إليه عمر الملاء بدفاتر الحسابات التي تضمنت تفاصيل الصرف بدقة بالغة، رفض نور الدين تدقيقها لثقته العميقة بنزاهة الرجل.. عرف كيف ينتقيه لهذه المهمة أول مرة فاستراح إلى النتيجة[٢].

المحاسبة الدقيقة لعمال الزكاة:

وحكى معين الدين محمد حفيد القيسراني وزير نور الدين الشهيد قال: انكسر ضامن دار الزكاة المعروف بابن شمام مال جمّ، فحبس، فباع ما كان يملكه من عقار بما قيمته ثمانية آلاف دينار وحمله إلى الخزانة، ولكنه بقي في الحبس مطالباً بما بقي في ذمته [٣].

هذه الخطوط العريضة في مصادر دخل دولة نور الدين وسياسته الاقتصادية الرشيدة، من نظام القطاع الحربي، والزكاة والخراج والجزية والغنائم وفداء الأسرى، والأموال العظيمة التي خلفها أبوه عماد الدين، والأمانة التي تميز بها وحكومته الرشيدة، وأهمية سيادة الأمن والاستقرار الداخلي في انتعاش الحركة الاقتصادية، ومساهمة الأثرياء، والمعاهدات والاتفاقات التي يترتب عليها امتيازات مالية، ودعم الخليفة العباسي للدولة الزنكية، وسياسة نور الدين الزراعية والصناعية والتجارية وغير ذلك من سياسته الاقتصادية الحكيمة التي ساهمت في دعم دولة الجهاد وتحقيق أهدافها.

إن من أسباب النهوض التي أخذ بها نور الدين الاهتمام بالجانب الاقتصادي، لأن القوة الاقتصادية هي عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعيف فيها يقهر ولا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يحكم، ولذلك ينبغي على القادة المهتمين بأمر نهوض الأمة أن يعتمدوا على الذات في موارد ثابتة، وهذا عامل مهم من عوامل النهوض.

إن حاجات مشروع نهوض الأمة متعددة تحتاج إلى أموال طائلة لتغطيتها، والمطلوب من الحركات الإسلامية والحكومات كذلك أن من رجالها من التجار المسلمين من تظهر على سلوكه أخلاق الإسلام في التعاملات التجارية، وتزوده بالخبرات الميدانية بحيث يقتحم مع إخوانه مجالات التجارة الدولية والأسواق العالمية ويعمل على توحيد جهود التجار المسلمين، لإيجاد شبكات للتعاون المثمر لمقارعة الشركات اليهودية والشيوعية والنصرانية وبذل ما في وسعهم من أجل هيمنة الاقتصاد الإسلامي على الأسواق العالمية - وتوظيفه لخدمة المشروع الإسلامي. من تحرير شعوب

(١) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٠٦.
(٢) الكامل في التاريخ نقلاً عن نور الدين محمود ص ١٠٦.
(٣) مفرج الكروب (١٩/١) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١٠٦.

المسلمين من سيطرة الفكر الرأسمالي الدخيل والشيوعي [١].

إن التاجر المسلم - في المفهوم الإسلامي الأصيل - من صناع الحياة، بل هم صناع الصناع، يقول الأستاذ محمد أحمد الراشد في هذا الصدد: وعلى خطة الدعوة أن تتوب توبة نصوحة من إسرافها القديم في تعليم الدعاة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية [٢]. وطلب في كتابه (صناعة الحياة) من الدعاة أن يهتموا بجمع المال ولينزل منهم نفر إلى السوق، لأن في ذلك مردود دعوي وذكر اليهود الذين استحوذوا على الأموال والأسواق ونحن لا نجيد إلا سبهم ونضجر من المارون والأقباط والبهرة والقاديانية والمبتدعة والأقليات إذ كان منهم السبق إلى المال، بتسهيل الدوائر الاستعمارية لهم ذلك في فترة الاستعمار جزماً، وبمساعدة قوى خفية أخرى، ولكننا لم نحسن غير سبَّهم وشتمهم. إلى أن قال:.. ولابد أن تهتم الحركات الإسلامية بميدان الصناعة والزراعة والعقار والاستيراد والتصدير وبخاصة في البلاد الحرة التي لا ينال أموالنا فيها ظلم، وفي العالم الكبير الفسيح متسع للاستثمار [٣].

إن نور الدين محمود اهتم بالقوة الاقتصادية وجعلها في خدمة الأمة والدعوة وسياسة الدولة وقادة الفكر، ودعّم بها مشروعه النهضوي.

ثانياً: سياسة الإنفاق في الخدمات الاجتماعية:

سعى نور الدين محمود إلى تقديم أوسع الخدمات الاجتماعية لشعبه وجعل مؤسسات الدولة أدوات صالحة في خدمة الجماهير وسعت لتغطية شتى الحاجات: ابتداء من قضايا المسكن والملبس والمأكل وانتهاء بقضايا الروح ومروراً بالحاجات الفكرية والصحية والعمرانية والإنتاجية، وقد أخذت هذه الخدمات أساليب وأشكالاً مختلفة، فهي حيناً تأتي عن طريق التوزيع المباشر للمال وحيناً عن طريق (الإعانة) على تلبية حاجة معينة أو الفكاك من الأسر وحيناً ثالثاً عن طريق إنشاء مؤسسات ومرافق: كالمارستانات والملاجئ ودور الأيتام والمدارس ودور الحديث والخانات والربط والجسور والقناطر والقنوات والأسواق والحمامات والطرق العامة والمخافر والخنادق والأسوار.. وحيناً رابعاً تجيء عن طريق نظم (الوقف) التي شهدت في عصر نور الدين قمة نضجها وتنظيمها وازدهارها وحيناً خامساً عن طريق عدد من الإجراءات التنظيمية التي استهدفت تحقيق الضمان الاجتماعي لقطاع ما من قطاعات الأمة [٤]. كان نور الدين يرى في الدولة جهاز خدمة وإنجاز، لا أداة قسر واستنزاف [٥]، فزمانه كما يقول أبو شامة: مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم [٦].

---

(١) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص ٢٨٨.
(٢) صناعة الحياة ص ٤٦.
(٣) صناعة الحياة ص ٤٦، ٤٧.
(٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١١١.
(٥) المصدر نفسه ص ١١٢.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١١٢.

١ – المجال الصحي (المستشفيات):

اهتم نور الدين محمود بإنشاء المستشفيات (البيمارستانات) وجعلها تقدم الخدمة الطبية المجانية للشعب وقد انتشرت في أغلب مدن الدولة الزنكية وتعتبر البيمارستانات من مفاخر الحضارة الإسلامية التي سبقت غيرها من الحضارات وإذا كان الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ/٧٠٥ ـ ٧١٥م) هو أوّل من بنى البيمارستانات الثابتة في الإسلام كما بينا في كتابنا الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار فإن الملك العادل نور الدين محمود وخلفاءه من البيت الأيوبي هم أول من استكثر منها من الملوك والسلاطين واهتموا بدراسة الطب وممارسته اهتمامً بالغاً وقاية لبلادهم من الأوبئة والأمراض، وكانت حلب في عهد الملك نور الدين محمود إحدى مراكز تدريس الطب في بلاد الشام، وكان ميدان ذلك البيمارستان النوري الذي كان يؤدي رسالة علمية لها أهميتها في تدريس الطب إضافة إلى قيامه بوظيفته الأساسية علاج المرضى ومتابعتهم [١].

أ – **البيمارستان النوري:** قال ابن الشحنة: إن الملك نور الدين محمود هو الذي بنى هذا البيمارستان داخل باب أنطاكية بالقرب من سُوق الهواء [٢]. وقال الغزيّ: هو لصيق البهرامِيّة من جنوبيها الشرقي بناه نور الدين محمود زنكي [٣] وقد ذكر ابن الشحنة أن الملك نور الدين حينما أراد بناء هذه البيمارستان طلب من الأطباء أن يختاروا من حلب أفضل بقعة، صحيحة الهواء صالحة لإقامة البيمارستان بها، وذبحوا خروفاً وقطّعوه أربعة أرباع، وعلّقوها بأرباع المدينة ليلاً، فلمّا أصبحوا وجدو أحسنها رائحة الرّبع الذي كان في هذا الموقع، فبنوا البيمارستان [٤] فيه وهذه خطة حكيمة في اختيار المكان الصالح لبناء البيمارستان في وقت تنعدم فيه آلات قياس الأبعاد ودرجات الحرارة واختبارات الأجواء [٥].

ويقع هذا البيمارستان حالياً في منطقة الجلوم الكبرى في الزقاق المعروف حالياً بزقاق البهراميّة[٦]، وقد وجد مكتوباً عند باب البيمارستان: بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمله المولى الملك العادل المجاهد المرابط الأعز الكامل صلاح الدنيا والدين قِسيم الدولة رضي الخلافة تاج الملوك والسلاطين ناصر الحق بالبراهين محيي العدل في العالمين قامع الملحدين قاتل الكفرة المشركين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين أدام الله دولته [٧] وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان: قرية معراشا، ونصف مزرعة وادي العسل، من جبل سمعان، وخمسة أفدنة من مزرعة كفرنايا، وثلث مزرعة الخالدي وطاحونها من المُطخ، وثُمن طاحون غربية طاهر باب

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٢.
(٢) الدّر المنتخب ص ٢٣٠ الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٢.
(٣) نهر الذهب (٦٤/٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٢.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٣.
(٥) المصدر نفسه ص ٤١٣.
(٦) أخبار حلب وأسواقها، خير الدين الأسدي ص ١٦٧.
(٧) نهر الذهب (٦٥/٢، ٦٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٣.

الجنان وثمانية أفدنة من مزرعة أبو مَدَاياً من عزاز، وخمسة أفدنة بمزرعة الحميرة المُطخ، اثني عشر فداناً من مزرعة الغرزل من المعرّة، وثلث قرية بيت راغِل من الغربيّات وعشرة دكاكين بسوُق الهواء منها ثلاثة تمام والباقي شركة الجامع الكبير، وأحكار ظاهر باب أنطاكية، وباب الفرج وباب الجِنان [١]، وكثرة هذه الأوقاف تدل على مقدار المال الوفير الذي تدرّه هذه الأوقاف لتأمين نفقات هذا البيمارستان الكبير [٢]، وقد أشار محمد كرد إلى وجود مكتبة متخصصة داخل البيمارستان تشتمل على كثير من الكتب الطبية التي أوقفها الملك نور الدين محمود على هذا البيمارستان [٣]، مما يؤكد أثر هذا البيمارستان في النشاط العلمي في هذا العهد إلى جانب الوظيفة الطبية التي كان يقوم بها [٤].

ب – البيمارستان النوري في دمشق: ينسب هذا البيمارستان للملك نور الدين محمود زنكي قال عنه ابن الأثير: وبنى البيمارستانات في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير [٥]، وذكر أبو شامة أن لأصل بنائه قصة عجيبة وهي: أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً، فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه وتسلم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع الحسنيين وهما الفِداء، وموت ذلك اللّعين، فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء لأنه لم يكن عن إرادتهم كان [٦]، كما علق أبو شامة على قول ابن الأثير: بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء فحسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير[٧]، فقال: وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة ليقع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه والله المستعان، وإنما صّرح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار وغيرها لا يمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء، فخصّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدى إلى غيره، لاسيما وقد صرّح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء، والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطي. وروى أن نور الدين رحمه الله شرب من شراب البيمارستان فيه - أي دواء للعلاج - وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطي. والله أعلم

(١) الدر المنتخب ص ٢٣١ الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٣.
(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٤.
(٣) خطط الشام (١٨٧/٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٤.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٤.
(٥) التاريخ الباهر ص ١٧٠ الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٦.
(٦) كتاب الروضتين نقلاً عن العهد الزنكي ص ٤٥٦.
(٧) المصدر نفسه ص ٤٥٧.

[١] وهذا الشرط يؤكد الهدف الاجتماعي النبيل من إنشاء هذا البيمارستان إذ كان الفقراء موضع عناية كبيرة لدى الملك نور الدين [٢] رحمه الله وذكر كرد علي أن هذا البيمارستان ظل عامراً إلى سنة ٣١٧هـ/١٨٩٩هـ وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلون عن عشرين رجلاً حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء في الجانب الغربي من التكيّة السليمانية المطلّة على المرج الأخضر وجمعت له إعانات وأخذ مبلغ من واردات البلدية وأوقاف المستشفى النوري واحتفل في ١٥ ذي القعدة ١٣١٧هـ بافتتاح المستشفى الجديد [٣]، أما بناية المستشفى النوري فقد جعلت مدرسة للبنات ثم اتخذت سنة ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م داراً لمدرسة التجار الرسمية [٤] وحالة البيمارستان النوري الحاضر جيدة وقد رُمّمت قبة المدخل حديثاً على الشكل الذي كانت عليه ويقام فيه حالياً: متحف الطب والعلوم عند العرب التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف السورية [٥].

وقد اشتهر البيمارستان النوري في دمشق في عهد نور الدين محمود زنكي بتدريس الطب، وقد أشار إلى ذلك ابن أبي أصيبعة وهو يُترجم لشيخه الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م فذكر أن أبا المجد كان يدور على المرضى بالبيمارستان الكبير النوري، ويتفقد أحوالهم، ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لا يتوخر عنهم، وكان مع فراغه من ذلك، وطلوعه على القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة، يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال، فكان جماع من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم تجري مباحث طبية ويُقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاثة ساعات ثم يركب إلى داره [٦]، وكان نور الدين قد أوقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية، وكانت في الخُرِستانين [٧]، اللذين في صدر الإيوان [٨]. كما كان بعض مشايخ الطب ومتقدميهم يجعل له مجلساً عاماً لتدريس صناعة الطب للمشتغلين عليه كما كان يفعل الطبيب مهذب الدين بن النّقاش [٩]، المتوفى سنة ٥٧٤هـ ١١٧٨م [١٠] فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق، كما شاركه في ذلك مجالس العلم التي كان يعقدها الموصوفون بصناعة الطب وتدريسه لطلابهم، ولم تُشر

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٧.
(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٧.
(٣) خطط الشام (١٥٩/٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٨.
(٤) تاريخ البيمارستانات ص ٢١٣ أحمد عيسى.
(٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٨.
(٦) المصدر نفسه ص ١٤٦.
(٧) تعني المكان اللائق أو المخزن أو الخزانة.
(٨) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٤٦.
(٩) المصدر نفسه ص ١٤٧.
(١٠) المصدر نفسه ص ١٤٧.

المصادر إلى وجود مدارس مستقلة بتدريس الطب في العهد الزنكي كما هو الشأن في العهد الأيوبي بعد ذلك، عندما أُنشئت أول مدرسة خاصة لتدريس الطب سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م وهي المدرسة قبلي الجامع الأموي بدمشق [١].

٢ – المساجد:

اهتم نور الدين بالمساجد اهتماماً عظيماً، فقد كان لها دور عظيم عبر التاريخ الإسلامي، فهو أول وأهم أمكنة التعليم على الإطلاق وقد كان المسجد بالإضافة إلى كونه محل عبادة المسلمين يجتمعون فيه خمس مرات في اليوم لأداء الصلوات المفروضة عليهم وظل المسجد قاعدة مهمة للتربية والتعليم [٢] ويروي العماد الأصفهاني أن نور الدين أمر بإحصاء ما في محلات دمشق من مساجد هجرت أو خربت فأناف على مائة مسجد فأمره بعمارة ذلك كله وعين له أوقافاً [٣]. وأصلح أحوال المسجد الأموي وأضاف إلى أوقافه المعلومة الأوقاف التي لا تعرف شروط واقفيها وسمّاها مال المصالح [٤] وأما أشهر المساجد التي بناها فهو المسجد النوري بالموصل الذي يذكره ابن الأثير بقوله: فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان [٥] وبنى جامعاً في حماة على نهر العاصي وصفه ابن الأثير بأنه من أحسن الجوامع وأنزهها [٦]، وأمر بإصلاح الجوامع المساجد في جميع المدن التي تأثرت بالزلازل سنتي (٥٥٢هـ، ٥٦٦هـ) [٧] وأصبحت المساجد في عصره من أهم المراكز العلمية والتي من أهمها:

أ – في حلب: كانت المساجد من المؤسسات العلمية التي استخدمها نور الدين في الإحياء السني والوقوف أمام المذهب الشيعي ولقد شهدت المساجد في حلب نشاطاً علمياً واسعاً في مجال الدراسات الشرعية اللغوية والأدبية، واستمرت تلك المساجد في نشاطها العلمي رغم انتشار المدارس في هذه المدينة، حيث أشارت المصادر إلى النشاط العلمي في أول جامع أنشئ في حلب وهو:

* **المسجد الكبير:** وقد ذُكر أن موضع هذا الجامع كان بستاناً للكنيسة العظمى في أيام الرّومان، وهي منسوبة إلى هيلانة أو قسطنطين الملك باني القسطنطينية، ولما فتح المسلمون حلب صالحوا أهلها على موضع المسجد الجامع [٨]، وقد ذكر ابن شداد أن هذا الجامع من بناء الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ/٧٠٥ ـ ٧١٥م) هو الذي قام ببناء هذا المسجد [٩] وفي شعبان سنة

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١١٠.
(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة ص ١١٦.
(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٨، الكواكب ص ١٧.
(٥) الباهر ص ١٧٠ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.
(٦) الباهر ص ١٧٠ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.
(٧) الدر المنتخب ص ٦١ الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٨٩.
(٨) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٠.
(٩) زبدة حلب (١٠٥/٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٠.

٥٦٤هـ (١١٦٩م) في أيام الملك العادل نور الدين محمود قام الإسماعيلية بإحراق هذا الجامع، كما احترقت الأسواق المجاورة لـه، فقام الملك نور الدين وأمر ببنائه واجتهد في عمارته، ونقل إليه عُمداً من بُعادين، وقنسرين لأن العمد التي كانت فيه قد تفطرت من النار، وقام بإضافة سوق قبلي الجامع إليه، واتسع به المسجد، وأوقف نور الدين عليه أوقافاً كثيرة ويقع هذا الجامع حالياً في سويقة حاتم أشهر حارات حلب وأقدمها ويبعد الجامع عن قلعة حلب الكبرى مسافة نصف ميل تقريباً من جهة الغرب، وبناؤه الحالي يرجع للعهد المملوكي باستثناء منارته التي يرجع تاريخها إلى سنة ٤٨٢هـ ١٠٨٩م [١]. أما النشاط العلمي في هذا الجامع فقد أشارت المصادر إلى وجود حِلق عديدة يجتمع حولها المشتغلون بالعلم أشهرها: السارية الخضراء التي كانت مخصّصة للدراسات الأدبية، كما كانت حِلق الأدب واللّغة والنحو تُعقد باستمرار في هذا الجامع إلى جانب قراءة القرآن الكريم والفقه [٢] وقد أنشأ نور الدين في هذا الجامع مع زاويتين إحداهما لتدريس الفقه على المذهب المالكي، والأخرى لتدريس الفقه الحنبلي. وقد كان لهاتين الزاويتين نشاط علمي ملموس خلال فترة البحث وبخاصة في عصر مؤسسهما وبالإضافة إلى تدريس الفقه في هذا الجامع، فقد حظي علم الحديث باهتمام الملك نور الدين محمود توجيهاً منه لسياسة التعليم في عصره نحو الدراسات الشرعية ليدعم بها المذهب السني في حلب فأنشأ زاوية لتدريس علم الحديث في هذا الجامع، وأوقف عليها الأوقاف الكافية للصرف عليها وعلى المشتغلين بها [٣].

ب – المساجد في دمشق: قامت العديد من المساجد في دمشق بدور في نشاط الحياة العلمية في هذا رغم التوسع الكبير في إنشاء المدارس وازدياد نشاطها في تلك الفترة، وكان من أبرز تلك المساجد ما يلي:

* **الجامع الأموي**: يُعد الجامع الأموي بدمشق من المساجد المتميزة بحسن عمارتها، أراد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك(٨٦ ـ ٩٦هـ/٧٠٥ ـ ٧١٥م) عندما عزم على بنائه أن يجعل منه مفخرة من مفاخر دمشق، فأنفق فيه الأموال، وجلب إليه المهُرة من الصُّنّاع وأهل الفن البارعين، وبقي العمل فيه تسع سنين، أنفق عليه أربع مئة صندوق، في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار، وبذلك أصبح مفخرة من مفاخر العمارة الإسلامية على مرّ العصور [٤]. وقد حظي هذا الجامع باهتمام بالغ ورعاية كبيرة من الخلفاء والملوك والحكام على مرّ العصور الإسلامية وذلك فيما يتعلق بمتابعة تعميره، وتحسينه، أو صيانته وزيادة الوقف عليه، وفيما يتعلق بتشجيع حِلق التعليم التي كانت تُعد في جنباته، والصرف عليها [٥]، وقد ظل الجامع مُنذ بنائه مناراً للعلم والمعرفة، ومدرسة جامعة لعلماء دمشق وطلابها فيه تُلقى الدروس العلمية من كل فن، وإليه يفد طلاب العلم من كل صوب للنهل من معين الثقافة وللاجتماع بالعلماء الذين وقفوا أنفسهم في هذا المسجد على نشر المعارف

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٩٠، ٣٩١.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٩٠، ٣٩١.
(٤) الحياة العلمية في عهد الدولة الزنكية ص ٤١٦.
(٥) المصدر نفسه ص ٤١٧.

وتدريس العلوم، واستمر هذا الجامع في العهد الزنكي قبلة للعلماء والدارسين، ومركزاً علمياً بارزاً، فيه تعقد حِلق التعليم الخاصة والعامة، وفي جنباته تنشر زوايا تدريس القرآن وإملاء الحديث، وفيه صُنّفت وأمليت العديد من المؤلفات المُهمّة مثل تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر وغيره، كما تواتر في المصادر ذكر الزاوية الغزاليّة، ومجلس ابن عساكر، وزاوية المقادسة والزاوية الكوثرية، والسُّبع المجاهدي، وغيرها من منابر العلم في هذا المسجد والتي كان لها نشاط علمي مميز خلال هذا العهد، وكان النشاط العلمي في الجامع الأموي قد تركز على تدريس القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والفقه، كما عُقدت في هذا الجامع العديد من مجالس الإملاء والسماع اجتمع إليها عدد من العلماء وطلاب العلم حتى أصبح هذا الجامع من أبرز مواطن الثقافة في دمشق تناوب فيه جلّة من أعلام العلماء الذين لا تزال أسماؤهم لامعة في ميادين العلوم الشرعية، ولا تزال آثارهم ومؤلفاتهم باقية حتى اليوم ويصور أحد الشعراء المعاصرين للملك نور الدين محمود، وهو علي بن منصور السُروجي المتوفى سنة ٥٧٢هـ (١١٧٦م) نشاط التعليم في هذا الجامع في قصيدة وصف بها النشاط العلمي الذي شهدته دمشق في العهد الزنكي فيقول:

كأنهـــا جنـــة للخُلـــد دانيـــة ::: قُصُـــورها فتحـــت منهـــا المقاصـــير
فـــي كـــل قطـــر بهـــا للعلـــم مدرســـة ::: وجـــامع جـــامع للـــدين معمـــور
يُتلـــى القـــرآن بـــه فـــي كـــل ناحيـــة ::: والعلـــم يـــذكر فيـــه والتفاســـير
تكامـــل الحســـنُ فيـــه مثـــل مـــا كُملـــت ::: أوصـــاف مـــولى بنشـــر العـــدل مشـــهور
الملـــك والـــدّيْنُ والـــدّنيا بأجمعهـــا ::: وللخليفـــة مـــن أنـــواره سُـــورُ [١]

وكان من أشهر مرافق التعليم في هذا الجامع:

الزاوية الغزالية: تقع في الجهة الشمالية الغربية من الجامع الأموي، كانت تُنسب إلى الشيخ المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٧م) ثم نسبت إلى الشيخ أبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ (١١١٢م) [٢] لكونه دخل دمشق، وقصد الخانِقاه السِميساطيّة ليدخل إليها فمنعه الصُّوفيَّة من ذلك لعدم معرفتهم به فعدل عنها وأقام بهذه الزاوية بالجامع إلى أن عُلِم مكانه، وعُرِفت منزلته؛ فحضر الصوفية بأسرهم إليه واعتذروا له، وأدخلوه إلى الخانقاه، فعرفت تلك الزاوية به [٣] وقد درّس مجموعة من العلماء في هذه الزاوية بعد الشيخ نصر المقدسي منهم: تلميذه عالم الشام أبو الفتح نصر الله المصيصي المتوفى سنة ٥٤٢هـ ١١٤٧م والشيخ أبو النصر محمد بن علي الطوسي المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م [٤]، وخطيب دمشق أبو البركات الخضر بن شبل الحارثي المعروف بابن عبد المتوفى سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م والصائن أبو الحسين هبة الله بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، وأبو الفضائل عبد الرحيم بن رُستم الزنجاني المتوفى سنة ٥٦٣هـ، ١١٦٨م [٥]، ثم

(١) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية في العماد الزنكي ص ٤١٨.
(٢) سير أعلام النبلاء (٣٢٢/١٩ - ٣٤٦).
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤١٦.
(٤) المصدر نفسه ص ٤١٩.
(٥) طبقات الشافعية (١٥٩/٤) الدارس في تاريخ المدارس (٤١٨/١).

درّس بها مرتين العلامة قطب الدين النيسابُوري المتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م [١]. تدريس جميع هؤلاء العلماء الأعلام في الفقه الشافعي في هذه الزاوية يؤكد الأثر الكبير والنشاط العلمي المتواصل في هذا الجامع رغم انتشار المدارس في دمشق في هذا العهد، وربما أن هذا النشاط يفوق نشاط الكثير من مدارس دمشق في تلك الفترة سيما وأن هذه الزاوية تناوب عليها جُلة من أقطاب الفقه الشافعي في بلاد الشام في ذلك العصر [٢].

* **السُّبُع المجاهدي**: يقصد بالسبع، قراءة سبع من القرآن ثم أطلق على المكان الذي كان يقرأ السبع فيه ويقع هذا السبع على ما ذكر النعيمي داخل الجامع بمقصورة الخِضر داخل باب الزيادة، ويُنسب للأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بُزان بن يامِين أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود، موصوف بالشجاعة والبسالة مواظب على الصلاة والصدقات توفي في داره بدمشق في صفر ٥٥٥هـ - ١١٦٠م ودفن بالمدرسة المشهورة باسمه [٣].

* **الحلقة الكوثرية**: تقع هذه الحلقة تجاه شباك الكلاّسة تحت مئذنة العروس بالجامع الأموي[٤]، وقفها الملك نور الدين محمود على صبيان صغار وأيتام يقرأون في كل يوم بعد صلاة العصر (سورة الإخلاص) ثلاث مرات يهدون ثوابها للواقف ولهم على ذلك مُرّتب يتاولونه من ديوان السُّبع الكبير[٥]. وقد ذكر النعيمي أن عدد طلاب هذه الحلقة في عصر واقفها يصل إلى ثلاث مئة وأربعة وخمسين طالباً [٦].

* **حلقة لإقراء القرآن الكريم تحت قبّة النسر**: ورد في ترجمة المقرئ الحنبلي أبو العباس أحمد بن الحسين العراقي المتوفى سنة ٥٨٨هـ ١١٩٢م أنه قدم دمشق سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م فنزل بها وكان يقعد لإقراء القرآن في الجامع الأموي تحت قبة النسر [٧].

* **مجلس الحافظ ابن عساكر**: ذكر ياقوت الحموي أن الحافظ أبا القاسم علي بن الحسن بن عساكر أكمل أربع مئة مجلس وثمانية مجالس في فن واحد [٨]، وكان الجامع الكبير بدمشق ميدان هذه الأمالي وبخاصة قبل إنشاء دار الحديث النورية بدمشق، والتي أملى كثيراً من مجالسه فيها [٩]، كما كانت تُعقد بالمنارة الشرقية من هذا الجامع مجالس السماع مصنّفة الكبير (تاريخ دمشق) وقد حفظت لنا العديد من هذه السماعات ونُشرت في المجلدة الأولى من الكتاب، وفيها ذكر لتاريخ السماع، وعدد سطور السماع، وعدد السامعين وهي الأمور التي لابد من ذكرها عند تمام السماع

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٢٠.
(٣) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٢٠.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢١.
(٥) الدارس في تاريخ المدارس (٤٥١/١).
(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢١.
(٧) شذرات الذهب (٢٩٢/٤) الحياة العلمية ص ٤٢١).
(٨) معجم الأدباء (٨١/١٣).
(٩) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٢.

.[١]

* **جامع القلعة**: هذا الجامع أنشأه الملك العادل نور الدين محمود في قلعة دمشق، وأوقف عليه الأوقاف الكافية للصرف على المسجد وإمامه ومؤذنه [٢]، وقد ذكر ابن شداد ضمن مدارس الحنفية مدرسة بجامع القلعة واقفها الشهيد نور الدين محمود، كما ذكرها النعيمي باسم: المدرسة النورية الحنفية الصغرى، بجامع قلعة دمشق [٣].

ج – في الموصل، جامع نور الدين محمود: كان من ضمن أعمال نور الدين، أمره ببناء جامع يستوعب عدداً أكبر من المصلين وكان قد فوّض أمر بناء هذا الجامع للشيخ عمر الملاء وقد باشر الشيخ عمر بناء الجامع سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م واستمر العمل فيه نحو ثلاث سنوات [٤]، وكان نور الدين قد أنفق في بناء هذا الجامع أموالاً كثيرة، وأوقف عليه ضيعة من ضياع الموصل، وكان قد قدم الموصل سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م وصلى في جامعه بعد أن فرشه بالبسط والحصران، وعيّن له مؤذنين وخطيباً ورتب ما يلزمه [٥] وقد بلغ هذا الجامع درجة عالية من روعة البناء وحسن التخطيط قال عنه ابن الأثير: فجامعه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان [٦]، وحينما اكتمل بناء هذا الجامع رأى نور الدين أن من الأفضل أن يجمع فيه بين الصلاة وطلب العلم، فأمر ببناء مدرسة بداخله، ووافق أن وصل الموصل في تلك السنة الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاني الشافعي تلميذ محمد بن يحيى تلميذ الإمام الغزالي، ففوّض إليه أمر التدريس في هذه المدرسة، وكتب له منشوراً بذلك [٧]. هذا على سبيل المثال لا الحصر في اهتمام نور الدين بالمساجد وتفعيل دورها العلمي والتربوي، فكان لها آثار ملموسة في الازدهار العلمي وتطوره في العهد الزنكي، رغم وجود المدارس وانتشارها بشكل واسع في ذلك العهد [٨]. وتبقى ملحوظة مهمة هي: أنه لا يكاد يخلو مسجد من هذه المساجد من مكتبة ضخمة تضم عدداً كبيراً من الكتب في مختلف العلوم، والتخصصات وكانت تلك المكتبات تُوقف خصيصاً على المساجد ليرجع إليها الطلاب والباحثون، مثل مكتبة الشَرقَيّة لجامع حلب، وهي مكتبة عامرة، مسبلة للمطالعة، وتشتمل على الكثير من الكتب في مختلف فروع المعرفة [٩]. وهكذا كانت المساجد من المؤسسات المهمة في المجتمع الإسلامي وهي بمثابة المعاهد العلمية المُشعّة التي نهضت بمختلف العلوم في هذا العهد أسوة بالعهود الإسلامية السابقة وخرّجت العديد من العلماء الأفذاذ الذين أسهموا في تقديم العلم وازدهاره، وكانت تلك المساجد تتميز

(١) المصدر نفسه ص ٤٢٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٢٢.
(٣) الدارس في تاريخ المدارس (٦٤٨/١).
(٤) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص٣٥٦.
(٥) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ٣٥٦.
(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٥٧.
(٧) المصدر نفسه ص ٣٥٧.
(٨) المصدر نفسه ص ١١٤.
(٩) المصدر نفسه ص ١١٥.

بتكافؤ الفرص بين الطلاب دون تمييز لغني منهم على فقير، فزاد: إقبال طلبة العلم عليها، ولم يقف الفقر حائلاً أمام طلب العلم فيها، بل على العكس، فقد وجدت الكثير من الأوقاف التي قُررت لمن يرتاد هذه المساجد معلّما أو متعلماً حتى يتفرغوا لطلب العلم دون أن يشغلهم طلب العيش عن ذلك.

٣ – المدارس:

كانت المساجد المراكز الأولى للتعليم في الإسلام، إلى جانب كونها محل عبادة المسلمين، ومقر اجتماعاتهم ولكن مع مرور الزمن انتقل التعليم في بعض مظاهره عن المساجد إلى أماكن أخرى عرفت بالمدارس وقد ناقش شلبي هذا الأمر وعلله بأمور عديدة من أهمها.

- ازدياد الإقبال على الدراسات الشرعية، وبالتالي ازدحام حلق التعليم في المساجد بالكثير من الرّواد، وكان يبتعث من كل حلقة من هذه الحِلق صوت المدرس يُلقي درسه، وأصوات الطلاب يناقشونه ويسألونه، حتى تلاقت الأصوات المتصاعدة من الحِلقَ المتعددة، فأحدثت في المسجد شيئاً من الضجيج مما يتنافى مع مكانة المسجد، وهذا ما جعل احتمال المسجد للصلاة والتدريس معاً أمراً صعباً[١].

- تطور العلوم والمعارف مع مرور الزمن، حيث أصبحت هناك مواد تستدعي دراستها الكثير من الحوار والنقاش، ومثل هذه المواد تتنافى مع ما يجب أن يكون عليه روّاد المسجد من هدوء وسكينة[٢].

- انشغال جماعة من المسلمين بالتعليم في حلق المساجد معظم وقتهم ومحاولتهم الارتزاق عن طريق ممارسة حرف بسيطة قاموا بها إلى جانب التدريس، ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى معيشي مناسب، مما أدى بهم إلى البحث عن مكان مستقل تتوافر فيه شروط التدريس من جهة، ويضمن لهم جرايات وافرة تقوم بحاجاتهم من جهة أخرى [٣]، وعلى هذا الأساس بُدء بتأسيس هذا المكان الذي حمل اسم (المدرسة) ومن ثم بدأت طلائع الحركة المدرسية الفعلية بالظهور، والتطور مع الزمن [٤]. وتطورت المدارس وازداد انتشارها في زمن السلاجقة على يدي الوزير نظام الملك السلجوقي وقد ذكر السبكي في ترجمته لنظام الملك ما نصه: وبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بَهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة [٥] وقد تحدثت عن المدارس النظامية بالتفصيل في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ولما تولى نور الدين حكم الدولة الزنكية شاهدت حركة بناء المدارس انتشاراً واسعاً فقد أخذ في إنشائها واستدعى لها كبار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية وبنى لهم العديد من

(١) تاريخ التربية الإسلامية ص ١١٣.
(٢) المصدر نفسه ص ١١٣.
(٣) المصدر نفسه ص ١١٤ الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٢٢.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٢٢.
(٥) المصدر نفسه ص ٢٢ طبقات الشافعية (٣١٣/٤).

المدارس في شتى أرجاء مملكته، وكان يهدف من ذلك دعم المذهب السني، ومقاومة مذهب التشيع في المنطقة [١].

أ – **المدارس في حلب**: بدأت الحركة العلمية تبرز في حلب في بداية حكم نور الدين محمود لها في عام ٥٤١هـ (١١٤٦م) والذي ركز نشاطه مُنذ استلامه الحكم في تنفيذ سياسته الرامية إلى الوقوف بشدة أمام المذهب الشيعي الذي زاد انتشاره آنذاك في حلب، فحرص على تقويضه وإحلال المذهب السني مكانه، مما تطلب منه القيام بجهود علمية بارزة تجاه ذلك. كان منها تشجيع العلم والعلماء عن طريق إنشاء العديد من المدارس على مختلف المذاهب السنية، وتوجيه التعليم وجهة سنية عن طريق تشجيع تدريس العلوم الشرعية، وقد جلب عدداً من العلماء الأكفاء لتولي المهمة وبهذه السياسة نجح نور الدين في إنقاذ حلب من تأصل الفكر الشيعي بها وتمكن من تحويلها إلى مركز من مراكز السنة بعد أن كانت قاعدة للمذهب الشيعي في المنطقة[٢]، وقد أثمرت تلك الجهود في دعم حركة التعليم في حلب حتى أصبحت من المراكز العلمية المشهورة التي جلبت أنظار العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، حيث قامت فيها نهضة علمية بارزة من مظاهرها إنشاء العديد من دور التعليم على اختلاف تخصصاتها حتى بلغت بذلك مصاف المراكز العلمية المهمّة في العالم الإسلامي، بل ربما تفوقت عليها في بعض المجالات لما تميزت به حلب من موقع متوسط بين تلك المراكز، وإمكانات مادية وبشرية تفوق بعض الأحيان إمكانات المراكز الأخرى، إضافة إلى استمرار النشاط العلمي بها في فترات لاحقة للحكم الزنكي في نفس القوة التي بدأ بها نظراً لما لاقته تلك الإمارة من دعم وتشجيع مستمرين طيلة عصر نور الدين، والسلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم [٣]. وكانت أبرز المدارس التي أنشئت في حلب:

– المدارس الشافعية:

المدرسة الزّجاجية: تعد هذه المدرسة من المدارس السابقة على الحكم الزنكي، فقد أنشأها بحلب بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار الأرتقي سنة (٥١٧هـ/١١٢٣م) وهي أول مدرسة سنية فيها وحينما عزم بدر الدولة على بناء أول مدرسة بحلب لم يمكنه الحلبيون من ذلك لغلبة نزعة التشيع فيهم، فكان كلما بنى فيها شيئاً في النهار أخربوه ليلاً إلى أن أعياه ذلك فأحضر الشريف زهرة بن علي الحُسَيني وأوكل إليه أمر الإشراف على بنائها ليكفّ عنه الشيعة، فلازم الشريف زهرة بناء تلك المدرسة حتى تم الانتهاء منها [٤]. وهذا يدل على مدى تغلغل هذا المذهب في حلب في تلك الفترة التي سبقت الحكم الزنكي لها [٥] ولما ملك الأتابك عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آقسنقر حلب في سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م نقل والده وكان مدفونا في قرنبيا [٦]، فدفنه في شمالي هذه المدرسة، وزاد عماد

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٢٥.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٨٩.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٨٩.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٨٤، ٨٥.
(٥) المصدر نفسه ص ٨٥.
(٦) قرنبيّا: يقع شرقي حلب.

الدين في وقفها للصرف على القُرّاء والمتفقهين المرتبين بها [١]، وكان أبرز المدرسين في هذه المدرسة في العهد الزنكي:

شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن الحلبي المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م [٢]، حيث ذكر ابن شداد أنه لما اكتمل البناء في هذه المدرسة فوّض مُنشئها أمر التدريس والنظر بها للشيخ شرف الدين أبي طالب المعروف بابن العجميّ، وقد استمر شرف الدين مدرساً بها إلى أن توفي سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م [٣]، وتولى التدريس بها بعده حفيداه مجد الدين طاهر بن نصر بن جهبل المتوفى (٥٩٧هـ/١٢٠١م) [٤] وأخوه زين الدين عبد الملك بن نصر بن جهبل المتوفى سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م [٥]، وكانا من العلماء المتميزين والفضلاء المبرزين [٦].

* **المدرسة النِضّريَة (النورية)**: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) وكان الشيخ قطب الدين النيسابوري وهو أول من وُلي التدريس في هذه المدرسة وكان قدم إليها من دمشق، ثم ولي تدريسها بعده مجد الدين طاهر بن جهبل المتوفى سنة(٥٩٧هـ/١٢٠١م) [٧]، ولم يزل مدرساً بها إلى أن نقل إلى القدس الشريف فدّرس به إلى أن توفي [٨].

* **المدرسة العصرونية**: كان موقع هذه المدرسة في الأصل دار لأبي الحسن علي بن أبي الثُّريّا وزير بني مِرداس أصحاب حلب ولما جاء نور الدين محمود إلى حلب اشترى هذه الدار وحوّلها مدرسة، وجعل فيها مساكن للمدرسين بها من الفقهاء وذلك (سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م) حسب ما جاء في بعض المصادر التاريخية [٩]، وبعد أن أتمّ نور الدين محمود بناء هذه المدرسة استدعى لها من نواحي سنجار الإمام شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٣م [١٠] وفوّض إليه مهنة التدريس بها والنظر في أوقافها، وهو أوّل من درّس بها فعُرفت به، ونسبت إليه [١١]، ولم يزل الإمام شرف الدين بن أبي عصرون يُدّرس في هذه المدرسة وينظر أوقافها إلى أن عاد إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ ١١٧٤م [١٢]، ولما خرج إلى دمشق استخلف (نيابة) فيها ولده نجم الدين أبو البركات عبد الرحمن وظل هذا حتى ولي قضاء حماة فغادر حلب [١٣]. وممن أقام في هذه المدرسة

(١) الدر المنتخب ص ١١٠ الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٢.
(٢) طبقات الشافعية (١٤٧/٧) الحياة العلمية ص ٣٩٢.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٣.
(٤) شدرات (٣٢٤/٤) الحياة العلمية ص ٣٩٣.
(٥) الحياة العلمية ص ٣٩٣.
(٦) المصدر نفسه ص ٣٩٣.
(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٤.
(٨) طبقات الشافعية للأسنوي (٣٧٢/١).
(٩) الدر المنتخب ص ١١٠، الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٥.
(١٠) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٤.
(١١) المصدر نفسه ص ٣٩٥.
(١٢) وفيات الأعيان (٥٤/٣) الحياة العلمية ص ٣٩٧.
(١٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٩٧.

الإمام الحافظ حجة الدين محمد بن أبي محمد بن محمد بن ظفر الصّقلّيّ المتوفى سنة ٥٦٥هـ /١١٦٩م [١]، فقد ذكر أنه حلّ بحلب وأقام بالمدرسة العصرونية وصنّف كتباً حسنة، فلما وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة وأظنها فتنة سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م [٢]، ونُهبت كتبه فيما نُهب وخسر جزءاً من مؤلفاته القيّمة، فرحل إلى حماة وأقام بها حتى وفاته [٣].

* **المدرسة الشرفية**: أنشأها الشيخ الإمام شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن الحلبي المعروف بابن العجمي المتوفى سنة (٥٦١هـ/١١٦٦م) وقد صرف شرف الدين على بنائها ما نيف على أربع مئة ألف درهم وأوقف عليها أوقافا جليلة [٤].

***المدرسة الأسدية الجُوّانية**: تُنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى بن مروان المتوفى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م الذي أنشاها بمحلة الرحبة بحلب للمذهب الشافعي [٥].

* **المدرسة الشُّعْيْبِيَّة**: كان موقع هذه المدرسة مسجداً يقال: إنه أول ما اختطه المسلمون عند فتح حلب من المساجد، وعُرف هذا المسجد بأبي الحسن الغضائِرِيّ المتوفى سنة ٣١٣هـ فلما ملك نور الدين محمود حلب وأنشأ بها المدارس وصل الشيخ شُعيب الأندلس إلى حلب فصيَّر له هذا المسجد مدرسة وجعله مدرساً بها فعرفت به، ولم يزل الشيخ شعيب مُدرّساً بها إلى أن توفي بطريق مكة سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م [٦].

٥ – المدارس الحنفية:

المدرسة الحلاّوية (الحَلَويّة): يذكر ابن شداد أن هذه المدرسة كانت كنيسة من بناء هيلارني أم قسطنطين فلمّا حاصر الصليبيون حلب سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م قاموا بقطع الأشجار ونبشوا قبور الموتى، وأحرقوا من فيها، عمد القاضي أبو الفضل بن خشاب الحلبي إلى أربع كنائس داخل حلب، وصيَّرها مساجد وكانت هذه المدرسة تُعرف قديماً بمسجد السّراجين، فلمَّا ملك نور الدين محمود مدينة حلب جعل هذا المسجد مدرسة، وأنشأ فيه مساكن يأوي إليها الفقهاء وإيواناً للدروس، وكان مبدأ عمارتها في سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م [٧]، وقد جلب نور الدين إلى هذه المدرسة من أفامية مجموعة من الرخام الشفّاف الذي إذا وضع تحته ضوء أبان من وجهه ووصفه فيها [٨]، وكانت هذه المدرسة من أعظم المدارس صيتاً وأكثرها طلبة وأغزرها جامِكِيّة، وكان من شروط الواقفة: أن يحمل في كل شهر من رمضان من وقفها ثلاثة آلاف درهم للمدرس يصنع بها للفقهاء طعاماً، وفي ليلة النصف من شعبان في كل سنة حلوى معلومة وفي الشتاء ثمن بياض لكل فقيه شيء معلوم وفي أيام شرب الدواء

(١) المصدر نفسه ص ٣٩٧.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٩٧.
(٣) معجم الأدباء (٤٨/١٩) بغية الوعاة (١٤٢/١، ١٤٣).
(٤) الدر المنتخب ص ١١٢ الحياة العلمية ص ٣٩٨.
(٥) الحياة العلمية ص ٣٩٩.
(٦) المصدر نفسه ص ٤٠٠.
(٧) المصدر نفسه ص ٤٠٠.
(٨) المصدر نفسه ص ٤٠٠.

من فصلي الربيع والخريف ثمن ما يحتاج إليه من دواء وفاكهة، وفي المولد أيضاً الحلوى وفي الأعياد ما يرتفقون به فيها من دراهم معلومة وفي أيام الفاكهة ما يشترون به بطيخاً ومشمشاً وتُوتا [١].

* **المدرسة المقدمية**: ذكر ابن شداد أن الذي أنشأ المدرسة هو عز الدين عبد الملك المُعدّم وكانت إحدى الكنائس الأربع التي صيّرها القاضي ابن الخشاب مساجد في سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) وأضاف إليها داراً كانت إلى جانبها، وأنه ابتدئ في عمارتها سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) [٢]. وكان أول من درّس في هذه المدرسة الشيخ برهان الدين أبو العباس أحمد بن علي الأصولي مدرس المدرسة الحلاوية، ثم وليها بعده السيد الشريف الإمام العالم افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمي، ولم يزل بها إلى أن توفي في جمادى الآخرة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م [٣].

* **المدرسة المجِديّة الجُوّانية**: ذكر ابن الشحنة أن هذه المدرسة تنسب إلى نائب حلب في عصر نور الدين محمود وهو مجد الدين أبو بكر محمد بن الداية المتوفى فى رمضان سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م [٤].

المدرسة البّرانيّة: ذكرها ابن الشحنة أيضاً، ونسبها إلى مجد الدين بن الداية مؤسسة الجوانية [٥].

المدرسة الحدّادِيّة (الحدّادين): ذكر ابن شداد أن منشئ هذه المدرسة هو حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، وأنها كانت من الكنائس الأربع التي ذكرنا خبر تحويلها إلى مساجد سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م [٦].

ب – في دمشق: كانت أول مدرسة أشارت المصادر إلى إنشائها في دمشق سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م وهي المدرسة الصادرية الحنفية ثم تلا ذلك إنشاء العديد من المدارس، في الحكم الزنكي لدمشق (٥٤٩هـ - ٥٦٩هـ/١١٥٤ - ١١٧٤م) وقد توزعت تلك المدارس على المذاهب السنية الأربعة، ولكن المذهب الحنفي والشافعي هما السائدان على مدارس دمشق في ذلك العهد يليهما المذهب الحنبلي، وأخيراً المذهب المالكي [٧].

المدارس الحنفية:

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠١.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٠٤.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٠٥.
(٤) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٦.
(٥) أحياء حلب وأسواقها ص ١٤٢.
(٦) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٦.
(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٣.

المدرسة الصادرية: أنشئتت هذه المدرسة على يد أمير شجاع الدولة صادر بن عبد الله سنة٤٩١هـ ١٠٩٧م داخل باب البريد مما يلي الباب الغربي للجامع الأموي وهي أول مدرسة أنشئت في دمشق(١).

* **المدرسة الطرخانية**: قال ابن عساكر في تعداد مساجد دمشق: مسجد بالمدرسة المعروفة بدار طرخان وهي كانت قديماً للشريف أبي عبد الله بن أبي الحسن فوقفها سنقر الموصلي وجعلها مدرسة لأصحاب أبي حنيفة (٢).

* **المدرسة المُعينيّة**: ذكرها ابن عساكر ضمن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة المُعينيّة في قصر الثقفيين (٣) وقال ابن شداد: بحصن الثقفيين أنشأها معين الدين أنر أتابك الأمير مجير الدين آبق آخر الحكام البوريين بدمشق (٤)، وذكر الصفدي: أن معين الدين قد بنى هذه المدرسة للشيخ أبي المظفر محمد بن أسعد الفقيه الحنفي المعروف بابن الحكيم العراقي مُدرّسي الصادرية والطرخانية المتوفى ٥٦٧هـ/١١٧١م (٥):

* **المدرسة النُّورية الكبرى**: ذكر كل من أبي شامة وابن شداد أن هذه المدرسة تقع بخط الخوَّاصين(٦)، وأن الذي بناها هو نور الدين محمود زنكي (٧) وقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير هذه المدرسة في زيارته لدمشق سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ووصفها بأنها من أحسن مدارس الدنيا منظراً وأنها قصر من القصور الأنيقة (٨). وفي هذه المدرسة يقول الشاعر المشهور عرقلة الدمشقي المتوفى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م (٩):

ومدرسة سيدرس كُلُّ شيء ::: وتبقى في حِمى علم ونُسكِ
تضوّع ذكرُها شرقاً وغرباً ::: بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق ::: بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت مُلكي ::: وهذي في المدارس بيت مِلكي (١٠)

وقد نالت هذه المدرسة مكانة علمية كبيرة في ذلك العهد، حيث كانت في مقدمة مدارس دمشق، وبخاصة في عصر منشئها الملك نور الدين محمود والسنوات التي أعقبتها، وحينما تذكر حركة التعليم في بلاد الشام في تلك العصور يُشار إلى هذه المدرسة في مقدمة دور التعليم، وتتضح أهمية

(١) الدارس في تاريخ المدارس (٥٣٧/١).
(٢) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٥.
(٣) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٢٦.
(٤) الحياة العلمية ص ٤٢٦.
(٥) الدارس في تاريخ المدارس (٢٠٣/٢).
(٦) يسميه أهالي دمشق حالياً: سوق الخياطين.
(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٧.
(٨) الرحلة ص ٢٥٦ الحياة العلمية ص ٤٢٨.
(٩) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٢٩.
(١٠) كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٢٩.

هذه المدرسة في الأثر العلمي الذي قام به شيوخها ومدرسوها ومُعيدوها، وفي الأعداد الوافرة من الطلاب الذين تخرجوا منها إضافة إلى ما قامت به تلك المدرسة من نشاط سياسي واجتماعي كبير في ذلك العهد [١]، واستقراء الكتابة المسجلة على الحجر الذي يكوّن العتبة العليا لباب المدرسة يتبين لنا حجم الأوقاف التي أوقفها نور الدين على هذه المدرسة للإنفاق على ريعه على الطلاب والمدرسين، والعاملين بالمدرسة إنفاقاً سخياً متواصلاً ونص هذه الكتابة كالآتي: بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العادل الزاهد نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي آق سنقر ضاعف الله ثوابه، ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة رضي الله عنه، ووقف عليها، وعلى الفقهاء، والمتفقهة بها جميع الحمّام المُستجد بسوق القمح. والحمّامين المستجدين بالوراقة ظاهر باب السلامة والدار المجاورة والريع من بستان الجوزة بالأرزة، والإحدى والعشرين حانوتا خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من الشرق، والستة حقول بداريا، على ما نُص وشُرط فكتب الوقف رغبة في الآخرة، وتقدمة بين يديه يوم الحساب: **{فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}** [٢].

* **المدرسة الخاتونية البرّانية**: كانت هذه المدرسة مسجداً أوقفته الست زمرد خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دُقاق بن تُتُش المتوفاة سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م [٣]، وتاريخ وقفه سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م على الشيخ أبي الحسن علي البلخي المتوفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م [٤]، وقد ذكر الذهبي أن الست زُمُرّد خاتون على قدر من الثقافة والعلم واستنسخت الكتب وحفظت القرآن وبنت الخاتونية بصنعاء دمشق، ثم تزوجها أتابك زنكي فبقيت معه تسع سنين، فلما قُتل حجّت وجاورت بالمدينة ودفنت بالبقيع [٥].

المدارس الشافعية:

* **المدرسة الأَمِينيّة**: ذكر ابن شداد أن هذه المدرسة من بناء أمين الدولة ربيع الإسلام، وزاد عليه النعيمي أنها أول مدرسة بُنيت للشافعية بدمشق بناها أتابك العساكر بدمشق وكان يقال له أمين الدولة وكان مبدأ التدريس بها سنة ٥١٤هـ على ما ذكر الذهبي في ترجمته لجمال الإسلام أبي الحسن علي بن المسلم السُّلمي الدمشقي الشافعي مدرس الغزاليةّ والأَمِينيّة ومفتي الشام في عصره المتوفى سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م [٦].

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٢٩.
(٢) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٣٠.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٣٠.
(٤) الدارس في تاريخ المدارس (٥٠٢/١، ٥٠٣).
(٥) العبر (٢٧/٣) الحياة العلمية ص ٤٣١.
(٦) الحياة العلمية ص ٤٣٢.

* **المدرسة المجاهدية الجُوانية**: وواقف هذه المدرسة الأمير الكبير مجاهد الدين أبو الفوارس بُزان بن يامين بن علي بن محمد الجلالي الكُردي أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين محمود وقبله[١].

* **المدرسة المجاهدية البزانية**: تنسب هذه المدرسة للأمير مجاهد الدين بُزّان واقف المدرسة المجاهدية الجُوّانية وقد دفن فيها بعد وفاته [٢].

* **المدرسة العمادية**: بناها نور الدين محمود رحمه الله تعالى برسم خطيب دمشق أبي البركات بن عبد الحارثي وهو أول من درّس بها [٣]، ونسبت للعماد الأصفهاني لتدريسه بها بعده وقد ذكر العماد خبر تدريسه في هذه المدرسة سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م فقال: وفي رجب من هذه السنة فوّض إليّ المدرسة التي بحضرة حمام القصير، وعوّل علي في التدريس بها والنظر في أوقافها [٤].

* **المدرسة العصورنية**: تنسب هذه المدرسة للفقيه العلاّمة قاضي القضاة شرف الدين عبد الله بن محمد بن أبي عصرون المتوفى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م [٥] وقد بني له مدارس عديدة بحلب وحماة وحمص وبعلبك وغيرها [٦] وقد وردت نصوص تفيد أن القاضي شرف الدين بن أبي عصرون قد بنى لنفسه بدمشق [٧]، يقول عنه ابن خلكان: توفي ليلة الثلاثاء الحادية عشر من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمدينة دمشق، ودفن في مدرسته التي أنشأها داخل البلد وهي معروفة به [٨].

المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية:

* **المدرسة الأسديّة**: تنسب هذه المدرسة للأمير أسد الدين شيركوه، أحد أمراء نور الدين الكبار والمتوفى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م [٩]. وقد درس في هذه المدرسة عدد من المدرسين على المذهبين: الحنفي والشافعي ذكر النعيمي منهم خلال العهد الزنكي: الواعظ الحنفي المعروف بابن الشاعر نزيل القاهرة سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) [١٠]. وكان قد قدم دمشق وسمع الحافظ ابن عساكر وغيره، فحدّث وأفاد ودرّس بالأسدية [١١].

(١) الدارس (٤٥١/١) الحياة العلمية ص ٤٣٥.
(٢) الدارس (٤٥٣/١، ٤٥٤) الحياة العلمية ص ٤٣٧.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٣٨.
(٤) المصدر نفسه ص ٤٣٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٤٤٠.
(٦) وفيات الأعيان (٥٤/٣) الحياة العلمية.
(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤١.
(٨) وفيات الأعيان (٥٥/٣).
(٩) الدارس في تاريخ المدارس (١٥٢/١).
(١٠) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤٤.
(١١) الدارس (٤٧٣/١) الحياة العلمية ص ٤٤٤.

المدارس الحنبلية:

* **المدرسة الحنبلية الشريفية:** ذكر ابن شداد أنها من إنشاء سيف الإسلام أخى صلاح الدين يوسف بن أيوب [١].

* **المدرسة العمرية:** سمّاها ابن شداد مدرسة الشيخ أبي عمر بالجبل في وسط دير الحنابلة، وذكر أن بانيها وواقفها هو الشيخ أبو عمر الكبير [٢]، والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي وكان من الأولياء المشهورين، وذكر ابن طولون أنه إلى الشيخ أبي عمر وإلى ولده أحمد بن قدامة المتوفى سنة ٥٥٨هـ ١١٦٣م يرجع سبب كثرة أتباع المذهب الحنبلي بدمشق وبلاد الشام، فوالد الشيخ أبي عمر كان قد فرّ بدينه وعياله من نابلس بفلسطين عقب استيلاء الفرنجة على القدس، ووصلوا إلى دمشق في سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م ونزلوا في سفح جبل قاسِيون بمسجد أبي صالح، ولهذا عرفوا بالصالحين، وأقاموا في السفح منزلاً كثير الحجرات عُرف بدير الحنابلة، ثم تتابع البناء وعُمرت تلك الأراضي ودُعيت بالصالحية نسبة إلى بني قدامة الصالحين لما عُرِف منهم من علم وتقى وصلاح [٣] وكان آل المقدسي عندما هاجروا إلى الشام استقرّ نزلهم في الجبل وكان الناس يزورن الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة وكان السلطان نور الدين الشهيد يأتي إلى زيارته [٤].

المدارس المالكية:

* **المدرسة النورية الصلاحيّة:** ذكر الإربلي: المدرسة النورية ضمن مدارس الطائفة المالكية بدمشق ولكنه لم يحدد موقعها [٥] وأثبت ابن عساكر المدرسة النورية في حديثه عن مساجد دمشق فقال: مسجد في المدرسة النورية التي أوقفها نور الدين على المالكية في حجر الذهب [٦]. هذه هي أهم المدارس التي كانت في دولة نور الدين وهي على سبيل المثال لا الحصر.

٤- دور الحديث:

على الرغم من انتشار حركة المدارس في العهد الزنكي، وشيوع لفظ (مدرسة) على المكان المخصص للتعليم والإقامة والرعاية، فقد وجدت بجانبها دور تعليمية تؤدي الأغراض نفسها التي تنهض بها المدارس وإن لم تحمل اسمها فلفظ دار كان مرادفاً في المعنى والوظيفة لكلمة مدرسة، وقد ورد كثيراً في ذلك العهد، فنور الدين محمود أنشأ دار الحديث بدمشق، وهي الأولى من نوعها في الإسلام، ولم يطلق عليها اسم مدرسة ومن بعده تكاثرت دور الحديث كمدارس أحادية يخصصه لهذا العلم وقد عني المسلمون بدراسة الحديث الشريف عناية كبيرة باعتباره المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم ومن مظاهر العناية به إنشاء تلك الدور التي تتولى

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤٤.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٤٦.
(٣) القلائد الجوهرية في تاريخ الصلاحية (١/١٢٥).
(٤) المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها ص ٣٩.
(٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٤٨.
(٦) المصدر نفسه.

مهمة تدريس أقوال النبي ρ، وأفعاله، وأحواله من حيث رواية الحديث والبحث عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول ρ من حيث أحوال رواتها ضبطاً وعدالة، ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانقطاعاً، كما تتناول دراسة المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، والمراد منها مبنيًّا على قواعد اللغة العربية، وضوابط الشريعة، ومطابقاً لأحوال النبي ρ [١]. وكان الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، وتشييد دُور خاصة به من أبرز سمات التعليم في العهد الزنكي، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام كما ذكرنا ذلك وهي دار الحديث النُورّية بدمشق والتي أولى مهمة التدريس فيها، والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره هو الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م [٢]، ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي، وتُعد مبادرة نور الدين تلك إدراكاً منه للظروف المحيطة بالمنطقة في تلك المدة سواء ما يختص منها بالمذهب الشيعي تحمل عبء تقويضه من المنطقة ونشر المذهب السني [٣] أو ما يتمثل بالخطر الصليبي المحيط بالمنطقة، إذ كانت مهمة تلك المعاهد أن تقوم بدورها إلى جانب دور التعليم الأخرى في تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد ضد العدوان، فكثرت الدراسات والتأليف حول فضائل الجهاد والحث عليه، وزاد الاهتمام بدراسة هذا التخصص، وكانت دور الحديث مقراً لذلك النشاط [٤]. وليس هناك اختلاف في نظم التعليم بين دور الحديث والمدارس الأخرى سوى في كون المناهج في الأولى تُركز على الدراسات المتصلة بعلوم الحديث بينما يغلب التخصص الفقهي على مدارس العصر وهذه خطوة تميزت بها حركة التعليم في العهد الزنكي لعدم وجود مثل هذا النوع من المدارس قبل ذلك، إذ أن دراسات الحديث كانت تتمّ في حِلَق المساجد، كما كانت مادة إضافية في العديد من المدارس الفقهية ومع ذلك فإن علم الحديث لم تقتصر دراسته في العهد الزنكي على تلك الدور فحسب، بل كان يضاف لمناهج الدراسة في كثير من المدارس، إضافة إلى تخصيص بعض الزوايا الملحقة بالمساجد لتدريسه[٥].

أ – **في حلب**: وردت في بعض المصادر إشارات إلى وجود العديد من دور الحديث في حلب في هذا العهد، ولكن تلك المصادر لم تورد أية تفصيلات عن نشأة تلك الدور أو نشاطاتها أو مواقعها، واكتفت بنسبتها إلى مؤسسيها وكانت أبرز تلك الدور ما يأتي:

- دار للحديث تُنسب للملك العادل نور الدين محمود [٦] وهي غير الزاوية التي أوقفها نور الدين داخل جامع حلب لتدريس هذا العلم والتي سبق الحديث عنها [٧].

- دار أخرى أنشأها نائب نور الدين في حلب مجد الدين ابن الداية المتوفى

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة ص ١٣٢.
(٢) التاريخ الباهر ص ١٧٢ الحياة العلمية ص ١٣٣.
(٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٣٣.
(٤) المصدر نفسه ص ١٣٣.
(٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٣٤.
(٦) الدر المنتخب ص ١٢٣.
(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٨.

سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م[١].

- دار أنشأتها أم الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في الخانِقاه التي بنتها [٢].

ب – في دمشق: سبقت الإشارة إلى أن الاتجاه إلى العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، وإنشاء دُور خاصة به كان من أبرز سمات التعليم في هذا العهد، إذ بادر الملك نور الدين محمود بإنشاء أول دار للحديث في الإسلام، وهي دار الحديث النورية بدمشق، والتي أوكل مهمة التدريس فيها والإشراف عليها إلى أبرز أعلام عصره في هذا المجال، وهو الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) ثم تلا ذلك إنشاء العديد من دور الحديث في العالم الإسلامي. ولم يكن في دمشق في هذا العهد سوى هذه الدار [٣].

– دار الحديث النُّورية (٤): أجمعت كثير من المصادر على أن هذه الدار من إنشاء الملك العادل نور الدين محمود زنكي وأنها أول دار من نوعها في الإسلام [٥] قال عنه ابن الأثير: وبنى بدمشق أيضاً داراً للحديث، ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه [٦] وكان نور الدين قد عهد بأمر التدريس والنظر في هذه الدار للحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م [٧] وكان من بين تآليف الحافظ كتاب: سمّاه: تقوية المنُّة على إنشاء دار السُّنة في ثلاثة أجزاء [٨]، حيث كانت هذه الدار تُسمى دار السنة في السماعات القديمة التي قُرئت بها، وقد زاد من مكانتها أن الذين تولوا التدريس فيها في أول أمرها هما الحافظ الكبير وابنه القاسم بهاء الدين المتوفى سنة ٦٠٠هـ /١٢٠٣م من بعده، ثم تناوب فيها جُلّة من علماء الحديث البارزين وكانت هذه الدار مركز إشعاع للدراسات الحديثية في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) [٩].

(١) المصدر نفسه ص ٤٠٨.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٠٨.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٥٠.
(٤) المصدر نفسه ص ٤٥٠.
(٥) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٠.
(٦) التاريخ الباهر ص ١٧٢، كتاب الروضتين نقلاً عن الحياة العلمية ص ٤٥٠.
(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٠.
(٨) معجم الأدباء (٧٨/١٣) الحياة العلمية ص ٤٥٠.
(٩) الحياة العلمية ص ٤٥١.

٥- الخوانق والربط:

تُعد الخوانق والرُّبط من أهم مراكز الصوفية في العهد الزنكي، حيث يمارس فيها التصوف سلوكاً بالإضافة إلى قيامها بوظائف دينية واجتماعية أخرى، ولكنها مع ذلك كانت دور تعليم شاركت في تعليم العلوم الشرعية بالإضافة إلى مهمتها الأساسية التصوف [١]. وكان التصوف في تلك المدة اتجاهاً لـه نفوذه وسيطرته، وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي، فكان الصوفية محل تقدير الحكام واحترامهم، وقد برز نور الدين في هذا المجال، وحظي الصوفية لديه بمكانة عالية فأكرمهم، وأدناهم من مجلسه وبنى لهم الخوانق والربط في شتى أنحاء مملكته [٢]، وكانت مراكز الصوفية تلك مكاناً للعبادة والدرس قدمت مع دور التعليم الأخرى خدمات جليلة لحركة التعليم في ذلك [٣] وقد عرف العهد الزنكي الخوانق ضمن الأماكن التي كان لها أثر في التعليم وإن كان هذا الأثر أقل من أثر المساجد، والمدارس، ذلك لأنها لم تُبنَ أساساً لأغراض التعليم، والقيام بوظائفه، وإنما بنيت بقصد إيواء الصوفية الذين كانوا يخلون لأنفسهم لعبادة الله تعالى، فخصصت لهم تلك الدور لإقامتهم حيث كان يُوفر لهم فيها كافة أسباب الراحة والعيش حتى يتفرغوا للعبادة وطلب العلم بعيداً عن مشاغل الحياة، وكان منشئوها يوقفون بعض الأوقاف للصرف عليها وعلى من ينزل بها من الصوفية.

أ – **في حلب**: أشارت المصادر إلى العديد من الخوانق التي كانت قائمة بحلب في العهد الزنكي من أشهرها:

– **خانقاه البلاط**: ذكر ابن شداد أن منشئها هو شمس الخواص لؤلؤ الخادم عتيق الملك رضوان بن تاج الدولة تُتُش السلجوقي، وهي أول خانقاه بنيت بحلب وذلك سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م [٤].

– **خانقاه ابن العجمي**: تنسب هذه الخانقاه لشمس الدين أبي بكر بن العجمي أخو الشيخ شرف الدين أبو طالب عبد الرحمن المتوفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م وكان موقع هذه الخانقاه داراً يسكنها شمس الدين بن العجمي فلما تُوفي سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م أوقفها أخوه شرف الدين أبو طالب على الصُوفيّة، وجعل لها وقفا يدرّ عليها [٥].

– **خانقاه القديم**: أنشأها نور الدين محمود، وتولى النظر على عمارتها شمس الدين أبو القاسم بن الطرسوسي [٦].

– **خانقاه ابن المقدم**: تُنسب هذه الخانقاه لعز الدين عبد الملك المقدم منشئ المدرسة المقدمية الحنفية المتقدم ذكرها.

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣٥.
(٢) الباهر ص ١٧١الحياة العلمية ص ١٣٥.
(٣) الحياة العلمية ص ١٣٥.
(٤) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٠٩.
(٥) المصدر نفسه ص ٤٠٩.
(٦) المصدر نفسه ص ٤١٠.

– **خانقاه النفر**: وهي تحت القلعة أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد زنكي، وسميت بهذا الاسم لأنه كان في مكانها قصر من بناء شجاع الدين بن فاتك وكان مبدأ عمارته لها سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة [١].

– **خانقاه مجد الدين بن الداية**: تُنسب هذه الخانقاه لنائب حلب في عصر نور الدين محمود وأخيه من الرضاعة مجد الدين أبي بكر محمد بن الداية المتوفى سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م [٢].

خوانق النساء: إلى جانب الخوانق الخاصّة بالرجال، أنشئت في العهد الزنكي خوانق مخصّصة لإقامة النساء، يتعبدون فيها يتلقين دروساً في الوعظ الديني، ومن أشهر هذه الخانقاهات في حلب خانقاه نور الدين، حيث ذكر ابن شداد أن الملك نور الدين أنشأ خانقاه للنساء سنة ٥٥٣هـ/١١٥٨م على الأرجح [٣] ولكنه لم يحدد موقع هذه الخانقاه، كما أنه لم يبق لها أي أثر في الوقت الحاضر. هذه أهم الخوانق التي كانت قائمة في حلب في العهد الزنكي، وقد كان لهذه المؤسسات مشاركة فعّالة في إثراء الحياة العلمية في ذلك العهد نظراً لما كان يُعقد فيها من دروس وحلق ووعظ، إلى جانب قيامها بالوظيفة الأساسية التي أنشئت من أجلها وهي إيواء المتصوفة للانقطاع فيها للعبادة، ومجاهدة النفس والبعد عن الدنيا [٤].

ب – في دمشق: وجدت دمشق خلال العهد الزنكي العديد من الخوانق والرّبط، وكان له مشاركة فعالة في إثراء الحياة العلمية في هذا العهد، فقد كان ميداناً للتعليم إلى جانب ممارسة التصوف بها كنشاط أساسي أنشئت تلك الدور من أجله، وكانت أبرز هذه المنشآت ما يأتي:

– **الخانقاه السُميساطية**: تُنسب هذه الخانقاه للسُميساطي أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السُّلمي الحُبيْشبيّ المتوفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م كان من أكابر الرؤساء في دمشق [٥]، وكان أول من تولى مشيخة هذه الخانقاه في العهد الزنكي الوزير أبو المظفر الفلكِيّ فقد قدم دمشق زمن الملك نور الدين محمود فارتبطه عنده وأنزله هذه الخانقاه وجعلها شيخها وساهم أبو المظفر في زيادة عمارتها [٦].

– **خانقاه القصر**: ذكر كل من ابن شداد والإربلي أن هذه الخانقاه تُنسب لشمس الملوك وذكر الحُسيني [٧]، أنه إسماعيل بن تاج الملوك بُوري المتوفى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م أما ابن جبير السابق لهما فقد نسب هذه الخانقاه للملك نور الدين محمود حيث شاهدها في زيارته لدمشق سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ووصفها بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (يعني الصوفية) موضع يعرف بالقصر،

(١) المصدر نفسه ص ٤١١.
(٢) المصدر نفسه ص ٤١١.
(٣) الحياة العلمية ص ٤١١.
(٤) المصدر نفسه ص ٤١٢.
(٥) المصدر نفسه ص ٤٥١
(٦) الوافي بالوفيات (٢٢٤/١٥) الحياة العلمية ص ٤٥٣.
(٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٤٥٤.

وهو صرح عظيم مستقلّ في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشرافاً منها، وهو من البلد بنصف الميل لـه بستان عظيم يتّصل به، وكانت متنزّهاً لأحد الملوك الأتراك فيقال: إنه كان في إحدى الليالي على راحة، فاجتاز به قوم من الصوفية، فهريق عليهم من النبيذ الذي كانوا يشربونه في ذلك القصر فرفعوا الأمر لنور الدين، فلم يزل حتى استوعبه من صاحبه ووقفه برسم الصوفية مؤيداً لهم، فطال العجب من السماحة بمثله، وبقي أثر الفضل فيه مخلداً لنور الدين رحمه الله [١].

– **الخانقاه الأسدِيّة**: تنسب هذه الخانقاه للأمير أسد الدين شيركوه المتوفى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م [٢]، منشئ المدرسة الأسدية المشتركة بين الحنفية والشافعية بالشرف القبلي ظاهر دمشق [٣] وكانت هذه الخانقاه داخل باب الجابية، بدرب الهاشميين المعروف بباب الوزير [٤].

– **خانقاه الطاحُون**: تُنسب هذه الخانقاه للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وهي خارج البلد بالوادي [٥].

– **الرباط البياني**: جاء ذكر هذا الرباط عند ابن شداد: رباط أبي البيان بنا بحارة درب الحجارة [٦] وذكر السبكي أن هذا الرباط ينسب إليه إنما أنشئ بعد موته بأربع سنين اجتمع أصحابه على بنائه وقد أعانهم الملك نور الدين وأوقف عليه مكاناً بحُرّين [٧].

ج – **في الموصل**: كان في الموصل في العهد الزنكي ربُطٌ عديدة شاركت في نشاط الحياة العلمية في ذلك العهد، حيث كانت مراكز للتعليم والتثقيف والتأليف إلى جانب قيامها بوظائف التصّوف التي أنشئت من أجلها، ومن الملاحظ هنا أنه لم يفرق بين الخانقاه والرّباط في الموصل كما حصل في بعض مناطق الشام في ذلك العهد [٨] وكان من أشهر الربط التي كانت قائمة بالموصل:

– **رباط الملك سيف الدين غازي**: أنشأه بالموصل الملك سيف الدين غازي بن عماد الدين (٥٤١ ـ ٥٤٤/١١٤٦ ـ ١١٤٩م) وهو الرباط المجاور لباب المشرعة وقد أوقف عليه الأوقاف الكثيرة لتفي باحتياجاته [٩].

---

(١) الرحلة ص ٢٥٧ الحياة العلمية ص ٤٥٤.
(٢) الحياة العلمية ص ٤٥٥.
(٣) المصدر نفسه ص ٤٥٥.
(٤) المصدر نفسه ص ٤٥٥.
(٥) المصدر نفسه ص ٤٥٥.
(٦) المصدر نفسه ص ٤٥٦.
(٧) طبقات الشافعية (٣١٩/٧) الحياة العلمية ص ٤٥٦.
(٨) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ٣٨٤.
(٩) الباهر ص ٦٣ مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية ص ٣٨٤.

– **رباط الوزير جمال الدين الأصفهاني**: يُنسب هذا الرّبَاط للوزير الموصلي جمال الدين محمد بن علي الأصفهاني المعروف بالجواد المتوفى سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م [١]، وقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: بنى الرّبُط بالموصل، وسنجار ونصيبين وغيرها [٢].

– **الرّباط الزيني**: لم يقتصر بناء الرّبط على الملوك الزنكيين بل تبعهم في ذلك أمراؤهم ووزرائهم فأنشأوا الكثير من الرّبط في الموصل وغيرها كما أنشأوا دُوُر التعليم الأخرى، وكان ممن أنشأ رباطاً بالموصل الأمير زين الدين علي بن بُكتكين المتوفى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م منشئ مسجد زين الدين (المدرسة الكمالية) والمدرسة الزينية، فقد ذكر عنه ابن الأثير أنه: بنى مدارس ورُبُطاً بالموصل وغيرها[٣].

– **رباط بن الشهرزوري**: أشار إليه ابن خلكان في ترجمته للشيخ عز الدين أبو القاسم بن عقيل بن نصر الإربلي المتوفى سنة ٦١٩هـ (١٢٢٢م) حيث ذكر أنه ساكن ظاهر الموصل في رباط الشهرزوري، وقرر له صاحب الموصل راتباً، ولم يزل هناك حتى توفي [٤].

وقد قامت الخوانق والربط في عهد نور الدين بدور كبير في الجهاد وجمع المعلومات وتحريك العامة والدعاء للجيوش الإسلامية، ومقاومة التشيع الرافضي، وتعليم الجهّال أمور دينهم، وكانت الدولة النورية تشرف على ذلك وتوظف هذه الطاقات لخدمة مشروع النهوض. وكان للخانقاه عادة شيخ يتولى نظارتها والإشراف عليها يُسمى شيخ الشيوخ وقد اشترط الفقهاء فيمن يتولى هذه المناصب شروط عدة وآداب تؤهله لذلك منها ما ذكره السبكي من أنه لابد أن يتمتع بقسط وافر من العلم والحلم، وأن يتحمل الأذى والضيم على نفسه، وأن يكون حسن التلفظ، حريصاً على الصلاة والذكر، وتلاوة القرآن الكريم، وأن يحرص على تعليم مريديه العلم النافع، متدرجاً بهم بالأهون فالأهون، مبتعداً بهم عن الألفاظ التي يصعب عليهم معرفتها [٥]. وكان الملك نور الدين قد عهد هذا المنصب للفقيه عماد الدين عمر بن علي بن حمويه المتوفى سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م [٦]. وكان قد قدم دمشق في أيامه، ولم يلبث أن آنس منه نور الدين علماً وزهداً، ففوض إليه سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م مشيخة الخوانق والرُّبط في كل من دمشق، وحمص وحماة، وحلب، وبعلبك [٧] ومُنذ أن تولى الشيخ عمر بن حمويه هذا المنصب أطلق عليه لقب شيخ الشيوخ وهو اللقب الذي عرف به شيخ الصوفية أو ناظر الخوانق مُنذ ذلك الوقت [٨].

---

(١) الحياة العلمية ص ٣٨٤.
(٢) التاريخ الباهر ص ١٢٩ الحياة العلمية ص ٣٨٥.
(٣) الحياة العلمية ص ٣٨٥.
(٤) معيد النعم ص ٩٧ الحياة العلمية ص ١٣٧.
(٥) العبر للذهبي (٧٤/٣) الحياة العلمية ص ١٣٧.
(٦) الدارس (١٥٣/٢، ١٥٤) الحياة العلمية ص ١٣٧.
(٧) الحياة العلمية ص ١٣٨.
(٨) المصدر نفسه ص ١١٩.

٦ – الكَتَاتيب:

الكَتَاتِيْب أو الكُتَّاب: يطلق على المحل الذي يتعلم به الصبيان وكانت تقوم مقام المدارس الابتدائية في وقتنا الحاضر، وقد اتخذ المعلمون في العهد الزنكي زوايا بالمساجد وغرفاً ملاصقة لها لتعليم الأطفال القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي في شتى المدن الزنكية من ذلك الحلقة الكوثريّة والمجتمع السُّبعي وكلاهما في الجامع الأموي [١]، ويبدو أن السبب في اتخاذ المساجد أمكنة لتعليم الصبيان يعود إلى أن كثيراً من معلميهم كانوا يعتكفون في هذه المساجد، وكان يحترفون هذه المهنة ليضمنوا منها كسب عيشهم، وهم مقيمون على عبادتهم في المساجد فلزم حضور الصبية إليهم وبجانب الكتاتيب قامت أخرى مستقلة عنها، وقد أنشئ هذا النوع لتعليم الأيتام الذين فقدوا عائلهم أو الأطفال غير القادرين من أبناء المسلمين من الفقراء الذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى الكتاتيب لتعليمهم بأجر، أو إحضار مؤدبين يعلمونهم في بيوتهم، وقد اهتم روّاد التعليم في العهد الزنكي بإنشاء هذا النوع من الكتاتيب وأكثروا منها في بلادهم، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة للصرف عليها رغبة في الأجر، وحرصاً على نشر العلم، وقد أطلق على هذا النوع من الكتاتيب (مكاتب الأيْتام) أو مكاتب السَبيْل وقد خصّ ابن عساكر هذا النوع من الكتاتيب في حديثه عن أعمال الملك نور الدين محمود الخيرية فقال: ونصَّب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين وأجرى الأرزاق على معلميهم، وعليهم بقدر ما يكفيهم [٢]، كما تحدث ابن جبير عن واحد من هذه الكتاتيب في دمشق، ووصفه بقوله: وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم [٣]. كما كان كثير من المحسنين في العهد الزنكي يبنون المدارس وبجانبها مكاتب الأيتام حتى إذا أتمَّ الصبي تعليمه في الكُتَّاب، انتقل إلى المدرسة - إن رغب في مواصلة دراسته وله الجراية المستمرة أو النفقة الواسعة إلى أن يُنهي دراسته، ومن ذلك ما قام به الأمير مجاهد الدين قَايْمَاز والي القلعة في الموصل المتوفى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م) إذ أنشأ مكتباً للأيتام بالموصل بجانب مدرسته التي بناها على دجلة [٤] وقد شاع ذلك العمل الخيري في كثير من المدن الزنكية حيث وجد العشرات من الكتاتيب تُنشأ ملاصقة للمدارس، أو قريبة منها [٥] وقد قامت تلك الكتاتيب بأثر بارز في تنشئة الأطفال، وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة، مع تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة وجانباً من العلوم الإسلامية المُتفقة مع قدراتهم لتكتمل تنشئة الصبية على أسس إسلامية متينة [٦]. وهكذا نرى أن للأطفال نصيبًا في المشروع الإسلامي النهضوي الذي قاده نور الدين للتصدي للأخطار الباطنية والغزو الخارجي، والسير على نهج الإحياء الإسلامي السني الكبير.

(١) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص ١٢٠.
(٢) الرحلة ص ٢٤٥.
(٣) وفيات الأعيان (٨٢/٤، ٨٣) الحياة العلمية ص ١٢١.
(٤) الحياة العلمية ص ١٢١.
(٥) الحياة العلمية ص ١٢١.
(٦) الحياة العلمية ص ١٢١.

٧ – المكتبات:

تعد المكتبات القاعدة التي تستند عليها مختلف الجهود الثقافية في أي عصر من العصور، أو مجتمع من المجتمعات لدرجة أنه يمكن اتخاذها في كثير من الأحيان المعيار الذي يُحكم به على تقدم هذا المجتمع أو ذلك العصر وقد كانت المكتبات بمثابة دور التعليم في شتى العصور الإسلامية، وهيئات ينفق عليها الملوك، والأمراء، والأثرياء، والعلماء، لنشر العلم بين الناس، خصوصاً في وقت لم يكن للطباعة أي وجود، وكانت الكتب تنُسخ على أيدي نسّاخ متخصصين في هذا العمل، فكان يتعذر على الكثيرين من طلاب العلم اقتناء الكتب لقّلة عدد نسخها وارتفاع أسعارها، لأنها تنُسخ باليد، ومن هنا نشأت فكرة جمع الكتب في مختلف ميادين المعرفة في مكان واحد كي يسهل على طالب العلم الاطلاع عليها والاستفادة منها، وهذا ما عُرف بـ (خزائن الكتب أو المكتبات) [١]، وقد اهتم الزنكيون - كغيرهم - بتأسيس المكتبات في المساجد والمدارس، وغيرها من دور التعليم القائمة في ذلك العهد وقلّما نجد داراً تعليمية تخلو من مكتبة تتبعها مزودة بمجموعة من الكتب التي يرجع إليها الطلاب والباحثون في مختلف التخصصات تبعاً لحجم تلك الدار، والأوقاف التي أوقفت عليها، ولا أدل على ذلك الاهتمام من سياسة نور الدين محمود الذي أمر بتزويد كل هيئة تعليمية بمكتبة قيمة، وجعل عليها وقفاً كبيراً يصرف منه على المكتبة والمشتغلين بها [٢] وقد قال ابن عساكر عن نور الدين: إنه حصّل الكثير من كتب العلوم ووقفها على طلابها، وأقام عليها الحفظة [٣].

٨ – الإنفاق على الأيتام والأرامل:

كان طبيعة المجتمع جهادية واشتبك المسلمون مع الصليبيين في معارك كثيرة وترتب على ذلك تزايد أعداد من الشهداء وخرجت للوجود ظاهرة الترمل ووجدت النساء المترملات اللاتي فقدن أزوجهن في ساحات الوغى. وأشرفت الدولة النورية على تزويج الأرامل والاهتمام بهن ووجد الأطفال اليتامي الذين فقدوا آباءهم في ساحات الهيجاء العناية والاهتمام، وأشارت المصادر التاريخية إلى أن الدولة حرصت على علاج أوضاعهم من خلال صرف مخصصات لهم من مال وكساء [٤]، ففي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م استدعى نور الدين محمود بن زنكي رؤساء دمشق ومشايخها ومقدمي حاراتها ودروبها، وقال: أريد منكم أن تكشفوا عن أحوال مجاوريكم فعرّفوني باليتامي والأرامل ومن انقطع عن التكسب ومن اختلت أحواله لأنظر في حالهم ففعلوا ذلك فبعث إليهم بالغلات والكسوات ووظف لهم الوظائف [٥]، وكان نور الدين محمود يعتني بعائلات الذين ماتوا في ميادين المعارك أو موتاً طبيعياً، فإن توفي أحد أجناده وله ولد يقره على إقطاع أبيه،

(١) الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٥٤.
(٢) مرآة الزمان نقلاً عن الحياة العلمية في العهد الزنكي ص ١٥٤.
(٣) تاريخ دمشق نقلاً عن الحياة العلمية ص ١٥٤.
(٤) زبدة حلب (٣٩/٢) فن الصراع الإسلامي الصليبي ص ٢٦١.
(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن الخدمات العامة في بغداد ص ٨٠.

وإن كان الولد صغيراً رتب معه رجلاً يوثق به إلى أن يكبر، فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد من الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب [١].

٩ – الإنفاق على الحصون والخانات و(المجال العمراني):

كان نور الدين محباً للبناء والعمران ولكن ليس لبناء القصور وأماكن اللهو والنزف، فقد كان أبعد الناس عن هذا المعنى، إنما العمران الذي يقضي الحاجة، ويخدم مصالح الأمة، كأسوار المدن والقلاع والحصون الضرورية لحماية السكان وصدّ هجمات العدو، وإسكان الجند، وحفظ المؤن والأسلحة اللازمة للقتال، الأمر الذي كانت تقتضيه ظروف المواجهة مع الغزاة الفرنجة، ثم المساجد والمدارس ودور الأيتام والغرباء الضرورية لتربية الأجيال على الخير والصلاح، والمستشفيات والأسواق والخانات والحمامات والقنوات والقناطر والجسور لتسهيل العمل بالزراعة، والتجارة، من أجل تحقيق الكفاية وتحسين المعيشة وزيادة موارد الدولة، هذا هو العمران الذي أحبه نور الدين وأنفق القسم الأكبر من خزينة الدولة في سبيل تحقيقه [٢] فقد بنى أسوار مدن بلاد الشام جميعها وأصلح القلاع والحصون بعد الزلازل التي حصلت عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م وكذلك بعد الزلازل التي وقعت عام ٥٦٦هـ/١١٧١م [٣]، وأنفق على ذلك أموالاً طائلة يقول ابن الأثير في ذلك: فمن ذلك أنه بنى أسوار الشام جميعها وقلاعها فمنها حلب وحماة وحمص ودمشق وبارين وشيزر ومنبج وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس [٤]، وكنا قد تحدثنا بنوع من التفصيل عن المدارس والمستشفيات ودور الأيتام والمساجد ومن مظاهر العمران التي استحدثها نور الدين بناء الأبراج على الطرق بين الإمارات الفرنجية وما جاورها من بلاد الشام حتى المدن الرئيسية (دمشق، حلب، حماة، حمص) ووضع فيها حاميات صغيرة ومعهم الزاجل لينذروا من يليهم من بلاد المسلمين عن حركات الفرنجة، فيستعد المسلمون للقائهم، فكانت هذه الأبراج تعمل كنقاط مراقبة دائمة لتمرير المعلومات عن العدو [٥] وأما ما يتعلق بالمرافق العامة كالخانات والحمامات، والأسواق ودور الوضوء فقد تميزت مدن الشام بكثرتها وترتيبها ونظامها فقد وصف ابن جبير دمشق بقوله: وبهذه البلدة أيضاً قرب مئة حمام فيها وفي أرباضها وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلّها، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب لأن المرافق بها كثيرة وأسواق هذه البلدة من أفضل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً، وأبدعها وصفاً ولاسيما قيسارياتها، وهي مرتفعة كأنها الفنادق مثقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور [٦].
ويصف ابن جبير مدينة حلب بقوله: أما البلد فموضوعه ضخم جداً حفيل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة أخرى إلى أن تفرع من جميع

(١) الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ص ١٩١.
(٢) سنا البرق الشامي ص ٢٧.
(٣) عيون الروضتين نقلاً عن دور نور الدين محمود في نهضة الأمة.
(٤) الباهر ص ١٧٠ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.
(٥) الباهر ص ١٧١ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.
(٦) رحلة ابن جبير ص ٢٣٥، ٢٣٦.

الصناعات المدنية وكلها مشقف بالخشب فسكانها في ظلال وارفة وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة، قد اتصل السماط خزانة واحدة، وتخلَّلتها شُرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرّم وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها وحسنه أكثر من أن يوصف ويتصل به من الجانب الغربي مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً وإتقان صنعة [١] واتسعت مدن بلاد الشام وتضاعف عدد سكانها عدة مرات خلال عهد نور الدين[٢]. فقد كانت بنايات مدينة دمشق أحيانا - من ثلاثة طبقات تحتوي من الخلق على ما تحتوي ثلاث مدن. وصار على ظاهر حلب من العمارة والمساكن أكثر من المدينة وصارت تعاني من كثرة العالم وامتدت بساتين دمشق من حولها إلى مسافة خمسة عشر ميلاً: ولم تبق مزرعة في جبل ولا واد إلا وفيها سكان ولها مُغل ومع أن نور الدين كان يركز في البناء والعمران على البساطة والمتانة إلا أنه كان يميل إلى تجميل البناء وتحسينه ليكون البناء متناسقاً حسن الصورة مع عدم المبالغة في الزخرفة والتزيين، فقد أحضر للمدرسة الحلاوية التي بناها في حلب قطعاً من الرّخام الشفاف من مدينة أفاميا، وأمر بتجميل محراب المدرسة العمادية في دمشق بفصوص من الذهب وبنى في قلعة دمشق داراً عامّة سمّاها دار المسرّة وأوقف بعض البساتين في دمشق على تطييب جوامعها ومدارسها [٣]. لقد شكلت الإنجازات الباهرة المتعددة التي حققها نور الدين أركان نهضة الأمة. والجدير بالملاحظة والاعتبار أن نور الدين حقق هذه الإنجازات في ظل ظروف بالغة الصعوبة فقد كان في حالة حرب مستمرة مع الغزاة الفرنجة [٤].

١٠ – فك الأسرى:

وثمة مساحات أخرى امتدت إليها خدمات الدولة وضمانها الاجتماعي في عصر نور الدين، لقد فرّق الرجل اثنى عشر ألف دينار في فداء أسرى أهل الشام فكان يقول: هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم، والمغاربة غرباء لا أهل لهم [٥].

١١ – في عام ٥٦٩هـ خدمات اجتماعية كبيرة: في عام ٥٦٩هـ، السنة التي توفي فيها نور الدين، شهدت دولته جملة خدمات اجتماعية أخرى، شملت الكثير من القطاعات وتطلبت الكثير من النفقات: فزيدت الأوقاف ووسَعت الصدقات، ووفرت النفقات، ويجمع عدد من المؤرخين على أن تلك السنة شهدت نماذج من الخدمات الاجتماعية تدعو للإعجاب وتوضّح لنا إلى أي مدى كان نور الدين يسعى جاداً إلى تغطية حاجات أمته بفئاتها الفقيرة المحتاجة، ملبساً ونفقة وإشباعاً: إكساء الأيتام والنسوة وتزويج الأرامل وإغناء الفقراء ختان الأطفال [٦]. ويعلق العماد الأصفهاني على حملة تلك السنة بقوله:.. حسبنا ما تصدّق به على الفقراء في تلك الأشهر فقد زاد على ثلاثين ألف دينار ذهباً وكان

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٣، ٢٠٤ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٧.
(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠ دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٨.
(٣) الكواكب الدرية ص ٤٧.
(٤) دور نور الدين في نهضة الأمة ص ١٨٨.
(٥) رحلة ابن جبير ص ٢٨٠ نور الدين محمود ص ١١٨.
(٦) زبدة دمشق (٢٤٠/٢) نور الدين محمود ص ١١٧.

إذا مر بصدقة غلَّة أو ذهب تقدم إلى خادمه بإحضار جماعة من أماثل البلد وعدوله من أهل كل محلة فيقول لكل واحد: كم تعرف في جوارك من.. وغيرهم؟ فيقول: أعرف كذا وكذا فيسلم إليه صدقات أولئك الأعداد، حتى يستقرئ بالسؤال جميع الحاضرين. ثم يأتيه كل منهم يثبت ما فرّقه [١].

لقد تحقق في عهد نور الدين محمود ظهور مجتمع العدل والتضامن والتكافل والمواساة في الحاجات الأساسية. إن المسألة ليست مسألة دولة تعطي وتضمن وتخدم فحسب.. ولكنه (المجتمع) الذي تسعى هذه الدولة إلى تشكيله، المجتمع الذي يمحى فيه الاستغلال، وتضيق الفوارق ويشترك الجميع بالحق والعدل فيما يمكنهم من إشباع حاجاتهم الأساسية، لكي يقدر الجميع على التحرك إلى ما وراء تلك الآفاق الواسعة الرحيبة التي جاء الإسلام لكي يقوم الناس إليها. لقد تحقق التعاون الفعّال بين القيادة والقواعد [٢]، فنهض الجميع من كبوته واستوعب مشروعه الحضاري وقام بدوره الريادي. وهذه صورة من بين عشرات الصور، التي وصف بها هذا المجتمع يحدثنا عنها شاهد عيان بعد حوالي العقد فحسب من وفاة نور الدين:.. إن الحاج الدمشقي مع من انضاف إليهم من المغاربة، عند صدورهم إلى دمشق في هذا العام (٥٨٠هـ)، خرج الناس لتلقيهم، الجمّ الغفير رجالاً ونساءً يصافحونهم.. وأخرجوا الدراهم لفقرائهم يتلقونهم بها وأخرجوا إليهم الأطعمة.. وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد يلتزم - إن أحبّ - ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، وينهال الخبز عليه من أهل الضيعة ويلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء ومتى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى [٣]. وفي مكان آخر يقول ابن جبير شاهد العيان هذا - مثمناً أخلاقية المجتمع الإسلامي هناك:.. ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلاّ مبادرة أهلها لإكرام الغرباء، وإيثار الفقراء ولا سيما أهل باديتها لكفى بها فضلاً [٤].

إن من أبرز المعالم في تاريخنا كله: الإيمان بكرامة الإنسان وفطرة الإنسان، وحرمة الإنسان: حرمة دمه وعرضه وماله، وحقوق الإنسان: حقه في الحياة، وحقه في الحرية، وحقه في المساواة، وحقه في عيش كريم له ولمن يعول وأصل ذلك: أن الإسلام الذي صنع هذا التاريخ: يكرم الإنسان من حيث هو إنسان من ذرية آدم، الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله في الأرض خليفة قال تعالى: **{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}** (الإسراء: ٧٠). وأكد القرآن مع كتب السماء **{أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً}** (المائدة: ٣٢). كما أكد الإسلام: أن البشر جميعاً سواسية كأسنان المشط، لا يفرق بينهم عرق ولا لون ولا لغة ولا إقليم ولا طبقة، وإنما يتفاضلون عند الله بالتقوى قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}** (الحجرات: ١٣).

لهذا كان من أبرز المعاني الإنسانية المرعية والمؤكدة في تاريخنا كله: المساواة بين البشر

---

(١) البرق ص ١٤٣ نور الدين محمود ص ١١٧.
(٢) نور الدين محمود ص ١١٩.
(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٥٩، نور الدين محمود ص ١١٩.
(٤) نور الدين محمود ص ١١٩.

جميعاً: بيضاً وسوداً، عرباً وعجماً، حكاماً ومحكومين، أغنياء وفقراء شرفاء ووضعاء مسلمين وغير مسلمين [١] في إقامة العدل.

ومن المعاني الإنسانية العميقة البارزة في تاريخنا الإسلامي البر والإحسان بالناس، وبذل المعروف لهم، وإعانتهم في السراء والضراء، وخصوصاً الضعفاء والمحرومين منهم، أيا كان سبب ضعفه، فمنهم من ضعفه بسبب فقد المال كالمسلمين ومنهم من ضعفه بسبب فقد الوطن كابن السبيل، ومنهم من ضعفه بسبب فقد الحرية كالأسير والرقيق وقد أوصى الإسلام بهم جميعاً كما قال تعالى في وصف عباده الأبرار: **{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً}** (الإنسان: ٨، ٩) وقال تعالى: **{وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ}** (البقرة: ١١٧) وهؤلاء لهم في الإسلام حقوق بعضها واجبة وبعضها مندوبة وبعضها تطالب به الدولة.. وبعضها من الصدقات المعتادة، وبعضها من الصدقات الجارية، التي تمثلت في نظام الوقف الخيري، الذي رسخت جذوره، وسبقت فروعه، وامتدت ظلاله، وآتى ثماره في الحياة الإسلامية وتميز به تاريخ المسلمين أكثر من غيرهم من الأمم [٢].

* **ومن أبرز الدلائل على رسوخ المعاني الإنسانية في حضارتنا ووضوحها في تاريخ أمتنا:** كثرة المؤسسات التي تعنى بخير الإنسان والبرية [٣]، وإليك هذه الصفحات المشرقة مما كتبها الداعية الكبير والمجاهد الشهير العلامة الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه البديع من روائع حضارتنا عن هذه المؤسسات - فقال كانت المؤسسات نوعين: نوعاً تنشئه الدولة وتوقف عليه الأوقاف الواسعة، نوعاً ينشئه الأفراد من أمراء وقواد وأغنياء ونساء ولا نستطيع في مثل هذا الحديث أن نعدد أنواع المؤسسات الخيرية كلها، ولكن حسبنا أن نلّم بأهمها:

– **فمن أول المؤسسات الخيرية:** المساجد، وكان الناس يتسابقون إلى إقامتها ابتغاء وجه الله، بل كان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التي يؤسسونها وحبسنا أن نذكر هنا مبلغ ما أنفقه الوليد بن عبد الملك من أموال بالغة على بناء الجامع الأموي مما لا يكاد يصدقه الإنسان لكثرة ما أنفق من مال وما استخدم في إقامته من رجال ومن أهم المؤسسات الخيرية: المدارس والمستشفيات.

– **ومن المؤسسات الخيرية:** بناء الخانات والفنادق للمسافرين المنقطعين وغيرهم من ذوي الفقر.

– **ومنها:** التكايا والزوايا التي ينقطع فيها من شاء لعبادة الله عز وجل.

– **ومنها:** بناء بيوت خاصة للفقراء يسكنها من لا يجد ما يشتري به أو يستأجر داراً.

---

(١) تاريخنا المفترى عليه للقرضاوي ص ١٣٨.

(٢) تاريخنا المفترى عليه ص ١٤١.

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٤.

– **ومنها**: السقايات أي تسبيل الماء في الطرقات العامة للناس جميعاً.

– **ومنها**: المطاعم الشعبية التي كان يفرق فيها الطعام من خبز ولحم وحساء (شُربة)، وحلوى، ويقول الدكتور السباعي: ولا يزال عهدنا قريباً بهذا النوع من كل من تكية السلطان سليم، وتكية الشيخ محيي الدين بدمشق.

– **ومنها**: بيوت للحجاج في مكة ينزلونها حين يفدون إلى بيت الله الحرام، وقد كثرت هذه البيوت وعمت أرض مكة كلها، وأفتى بعض الفقهاء ببطلان إجارة بيوت مكة في أيام الحج، لأنها كلها موقوفة على الحجاج.

– **ومنها**: حفر الآبار في الفلوات لسقي الماشية والزروع والمسافرين، فقد كانت كثيرة جداً بين بغداد ومكة، وبين دمشق والمدينة، وبين عواصم المدن الإسلامية ومدنها وقراها، حتى قل أن يتعرض المسافرون - في تلك الأيام لخطر العطش.

– **ومنها**: أمكنة المرابطة على الثغور لمواجهة خطر الغزو الأجنبي على البلاد، فقد كانت هنالك مؤسسات خاصة بالمرابطين في سبيل الله يجد فيها المجاهدون كل ما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وطعام وشراب، وكان لها أثر كبير في صد غزوات الروم أيام العباسيين، وصد غزوات الغربيين في الحروب الصليبية عن بلاد الشام ومصر، ويتبع ذلك وقف الخيول وأدوات الجهاد على المقاتلين في سبيل الله عز وجل، وقد كان لذلك أثر كبير في رواج الصناعة الحربية وقيام مصانع كبيرة لها في بلادنا حتى كان الغربيون في الحروب الصليبية، يفدون إلى بلادنا - أيام الهدنة - ليشتروا منا السلاح، وكان العلماء يفتون بتحريم بيعه للأعداء، فانظر كيف انقلب الأمر الآن فأصبحنا عالة على الغربيين في السلاح لا يسمحون لنا به إلا بشروط تقضي على كرامتنا واستقلالنا ويتبع ذلك أوقاف يُعطى ريَعها لمن يريد الجهاد وللجيش المحارب، حين تعجز الدولة في الإنفاق على كل أفراده، وبذلك كان سبيل الجهاد ميسراً لكل مناضل يودُّ أن يبيع حياته في سبيل الله ليشتري بها جنة عرضها السماوات والأرض.. فانظر كيف عاد بنا الأمر إلى أن نقيم أسبوعاً للتسلح تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من أموالنا كل يوم - لا أسبوعاً للتسلح تجمع فيه التبرعات لتقوية الجيش وتسليحه، ولو كان عندنا وعي اجتماعي وإيمان صادق لأقمنا من أموالنا كل يوم - لا أسبوعاً واحداً في العام - مصانع لتزويد جيشنا بالسلاح والعتاد حتى يكون من أقوى الجيوش وأكثرها استعداداً لصد العدوان وحماية الديار.

– **ومن المؤسسات الاجتماعية** ما كانت وقفاً لإصلاح الطرقات والقناطر والجسور.

– **ومنها**: ما كانت للمقابر يتبرع الرجل بالأرض الواسعة لتكون مقبرة عامة.

– **ومنها**: ما كان أكفان الموتى الفقراء وتجهيزهم ودفنهم.

– **ومنها**: المؤسسات الخيرية لإقامة التكافل الاجتماعي. واليتامى ولختانهم ورعايتهم، ومؤسسات للمقعدين والعميان والعجزة، يعيشون فيها موفوري الكرامة لهم كل ما يحتاجون من سكن وغذاء ولباس وتعليم أيضاً.

- وهناك مؤسسات لتحسين أحوال المساجين، ورفع مستوى تغذيتهم بالغذاء الواجب، لصيانة صحتهم، ومؤسسات لإمداد العميان والمقعدين بمن يقودهم إليها.

– **ومنها**: مؤسسات لإمداد الأمهات بالحليب والسكر، وهي أسبق في الوجود من جمعية نقطة الحليب عندنا، مع تمحُّصها للخير الخالص لله عز وجل، وقد كان من مبرَّأت صلاح الدين: أنه جعل في أحد أبواب القلعة - الباقية حتى الآن في دمشق - ميزابا يسيل منه الحليب، وميزابا آخر يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي الأمهات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر [١].

ومن أطرف المؤسسات الخيرية: وقف الزبادي [٢] للأولاد الذين يكسرون الزبادى وهم في طريقهم إلى البيت، فيأتون إلى هذه المؤسسة ليأخذوا زبادي جديدة بدلاً من المكسورة ثم يرجعوا إلى أهليهم وكأنهم لم يصنعوا شيئاً.

وآخر ما نذكره من هذه المؤسسات: المؤسسات التي أقيمت لعلاج الحيوانات المريضة، أو لإطعامها، أو لرعايتها حين عجزها، كما هو شأن المرج الأخضر في دمشق الذي يقام عليه الملعب البلدي الآن، فقد كان وقفاً للخيول والحيوانات العاجزة المسنة ترعى فيه حتى تلاقي حتفها.

أما بعد فهذه ثلاثون نوعاً من المؤسسات الخيرية التي قامت في ظل حضارتنا فهل تجد لها مثيلاً في أمة من الأمم السابقة؟ بل هل تجد لكثير منها مثيلاً في ظل الحضارة الراهنة؟.. اللهم إنه سبيل الخلود تفردنا به وحدنا يوم كانت الدنيا كلها في غفلة وجهل وتظالم، اللهم إنه سبيل الخلود كشفنا به عن الإنسانية المعذبة أوصابها وآلامها.. فما هو سبيلنا اليوم؟ أين هي تلك الأيادي التي تمسح عبرة اليتيم، وتأسو جراح الكليم، وتجعل من مجتمعنا مجتمعاً متراصاً، ينعم فيه الناس جميعاً بالأمن والخير والكرامة والسلام [٣]؟

* * *

(١) من روائع حضارتنا مصطفى السباعي ص ١٧٨.
(٢) الزبادى: جمع زبدية وهي إناء من الفخار عادة بوضع فيه اللبن حتى يتخمر.
(٣) من روائع حضارتنا ص ١٧٨ - ١٨٢ تاريخنا المفترى على ص ١٤٨.